مقرر

عقيدة(١)

د.فلاح بن ثاني السعيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

العقيدة

- **المعنى اللغوي:**

– كلمة العقيدة: أصل مادتها اللغوية حروف العين والقاف والدال، وهو أصل واحد يدل على شد، وشدة وثوق، وإليه ترجع فروع الباب كلها[١].

– والعقد: الربط والشد بقوة، وهو نقيض الحل، والعقد يكون حسياً كعقد الحبل، ويكون معنوياً كعقد النكاح، والبيع واليمين..، ومنه قوله ﷻ : {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ} [المائدة: ٨٩].

– واليمن المعقدة: هي اليمين المعقودة، وهي التي يقصدها القلب لتأكيد الخبر وزيادة الاستيثاق منه، بخلاف لغو اليمين التي تجري على اللسان بدون قصد ولا هدف، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: ١].

– والعقود: هي العهود الموثقة المحكمة، فاستعمالات هذه الكلمة في اللغة تفيد معنى الربط واللزوم والتأكد والاستيثاق الباعث على الاطمئنان على الشيء المعقود.

– وأما كلمة عقيدة: فهي فعلية من العقد، بمعنى مفعول فهي بمعنى معقود.

وأما في الاصطلاح: فإن هذه الكلمة صارت تطلق على: (الأمور التي يصدق بها القلب يدركها إدراكا جازما لا يتطرق إليها الشك).

والمعنى اللغوي ظاهر في المعنى الاصطلاحي، لأن هذه الأمور انعقد عليها القلب ولزمته واطمأن إليها واستوثق منها.

---

[١] مقايس اللغة لابن فارس ، (٤/ ٦٩).

العقيدة الصحيحة والعقيدة الفاسدة

العقيدة بالمعنى الاصطلاحي السابق قد تكون باطلا، إذ أن كل أهل ديانة لهم أمور يعتقدونها وهي عندهم حق، وفي نظرهم أن عقيدتهم صحيحة، ولكن هذا لا يعني أن تكون تلك العقائد كلها حق وكلها صحية في نفس الأمر.

مثلا: من عقائد النصارى أن الآلهة ثلاثة وهي في الوقت نفسه إله واحد، وأن عيسى ابن الله وهذه عقائد باطلة وفاسدة، ويعتقد اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن عيسى ابن بغي وليس رسولا، وهذه أيضا عقائد غير صحيحة.

العقيدة الإسلامية

هي تلك الأمور العلمية التي يجب على المسلم أن يصدق بها تصديقاً جازماً لا يقبل الشك. فهذه الأمور سميت في الاصطلاح عقيدة، بينما جوانب الإسلام الأخرى تسمى الشريعة، وهي تعني التكاليف العملية، فالإسلام إذا عقيدة وشريعة.

- **أصول العقائد في الإسلام هي:**

الإيمان بالله تعالى ((الإيمان بربوبيته وأسمائه وصفاته وألوهيته))، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالكتب، والإيمان بالرسل، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

ويدخل في العقيدة: التصديق الجازم بكل ما جاءت به النصوص الصحيحة، وما أجمع عليه السلف الصالح.

فيدخل في العقيدة: وجوب الصلاة، والزكاة....، وتحريم الخمر والربا والزنى.

وأمور العقيدة يصدق بها تصديقا جازما لا يتطرق إليه الريب، قال تعالى:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} [الحجرات: ١٥]، وقال تعالى: {وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ} [الشورى: ٧]، وذم المشركين المرتابين: { وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} [التوبة: ٤٥].

وأيضا أمور العقيدة أمور غيبية ليست مشاهدة، والمسلمون يصدقون بها، لأن الله تعالى أخبرهم بها أو أخبرهم بها رسوله ﷺ، فالإيمان بها والتصديق الجازم بها من تمام الإيمان بالله ورسوله ﷺ، فالله غيب، والملائكة غيب، واليوم الآخر غيب، والكتب والرسل غيب من حيث إضافتها إلى الله، فالكتب هي كتب الله وكلامه ووحيه إلى أنبيائه والتصديق بذلك تصديق بأمر غيبي.

والرسل: هم رسل الله كلفهم بحمل الرسالة منه إلى أقوامهم ومن أرسلوا إليهم، وهذه أيضا أمر غيبي والتصديق به تصديق بالغيب، وقد امتدح الله سبحانه الذين يؤمنون بالغيب في أول سورة البقرة.

ولذا ندرك بسهولة أن العقائد الصحيحة هي تلك العقائد التي جاءت بها الرسل عليهم السلام فالغيب لا يعلمه إلا الله ﷻ والله يطلع رسله على ما يشاء منه.

فالعقائد التي جاءت بها الرسل كلها حق وصدق لأنها من الله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [الأنعام: ١١٥]، وقال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [الأنعام: ١١٥].

وندرك أيضا أن العقائد الباطلة ليست مأخوذة من مشكاة النبوات، وإنما هي من وضع البشر ابتداء بحسب عقولهم القاصرة وآرائهم الفاسدة، أو من تحريفهم للعقائد الصحيحة المتلقاة من الأنبياء مثل عقائد النصارى واليهود اليوم.

- **أين العقيدة الصحيحة اليوم؟**

العقيدة الصحيحة اليوم لا توجد إلا في الإسلام، لأنه الدين المحفوظ الذي تكفل الله بحفظه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر: ٩].

والعقائد في غير الإسلام وإن كان في بعضها نتف من الحق، فإنها لا تمثل الحق ولا تجليه ((وفيها من الباطل الشيء الكثير الكثير))[١].

- **أهمية العقيدة:**

العقيدة هي أساس الدين وأصله المتين، فلا يقوم دين العبد إلا بالاعتقاد الصحيح والإيمان الواجب، فإذا فسدت عقيدة المرء أو تطرق إليها الخلل في أي جانب منها فإنه يكون على شفا هلكة، فإما أن يرتد ويصبح كافرا وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، وإما أن يقع في البدع والضلالات التي حذر منها النبي ﷺ تحذيرا بليغا، ومن جانب آخر فإن العقيدة هي التي تعطي الإنسان قيمته وترفعه فوق سائر المخلوقات من حوله.

فالعقيدة الصحيحة تفسر له وجوده ووجود الكائنات من حوله، فهذه كلها مخلوقات والله ﷻ هو الحق وحده:

{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [الزمر: ٦٢].

وهذه المخلوقات كلها مسخرة للإنسان، قال تعالى: { وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ } [الجاثية: ١٣]، سخر الله له كل ذلك لينتفع بها ويستعين بها، ليحقق الغاية التي خلقه الله لها، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦].

---

[١] انظر العقيدة في الله ، (ص: ١١).

وهذه الحياة وما فيها من خير وشر إنما هي محل ابتلاء واختبار للإنسان قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك: ١، ٢] وقال ﷻ: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء: ٣٥]، وفي اليوم الآخر يكون الجزاء على أعمال الإنسان في هذه الحياة الدنيا.

فالعقيدة الصحيحة ليست مجرد تصديق جازم بأمور معينة، وإنما ينبغي أن يكون لهذه العقيدة أثر فعال في سلوك الإنسان وتصرفاته، بحيث يصبغ الإنسان حياته بما تقتضيه هذه العقيدة.

أما العقيدة التي تظل ساكنة في القلب فحسب، فهذه عقيدة ضعيفة هشة، وكلما كانت تلك العقيدة في القلب أضعف كانت آثارها في السلوك والعمل أقل، فإذا قويت العقيدة وحسنت ظهر أثرها بيّنا في السلوك والأخلاق والأعمال، والولاء والبراء.

ألا ترى أن إبليس يعرف ربه ولكن هذه المعرفة لا تنفعه، لأنه لم يعمل بما تقتضيه معرفة الله من التسليم له سبحانه في الحكم والأمر والشرع، فلم يقبل حكم الله، ولم يستجب لأمره بالسجود لآدم، بل أبي واستكبر فكان من الكافرين.

- **العقيدة والإيمان:**

إن كلمة العقيدة بمعناها السابق لم ترد في كتاب الله ولا في سنة النبي ﷺ ولم تكن معروفة في القرون المفضلة الثلاثة الأولى، بل إن أول ما ظهر استعمالها بهذا المعنى كان في نهاية المائة الثالثة أو بداية الرابعة على وجه التقريب، فهي اصطلاح حادث.

وأما **القرآن والسنة** فقد جاءا بلفظ الإيمان، وهو أكمل وأشمل وأحسن من الاصطلاح الحادث، ذلك أن هذا اللفظ هو الذي ورد إيجاب مدلولة على الناس جميعا، وأثنى الله على أهله، وامتدح أصحابه، قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ...} [المؤمنون: ١، ٢]، وقال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ٧٢].

فالإيمان المأمور به شرعا يشمل ما في القلب من التصديق والإقرار والمحبة والخوف والرجاء.

ويشمل أقوال اللسان وأعمال البدن المشروعة ولهذا يقول أهل السنة والجماعة (السلف) و(أصحاب الحديث): [الإيمان تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان].

وأركان الإيمان هي الأمور الستة المذكورة في حديث جبريل حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره).

وسنتكلم إن شاء الله عن الإيمان فيما بعد على وجه التفصيل.

العقيدة الإسلامية وعقائد المسلمين

العقيدة الإسلامية يراد بها تلك المسائل التي ذكرناها آنفا، وهي كلها حق وصدق لا يتطرق إليها الخطأ والشك، لأنها متلقاه من الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومنه السنة الصحيحة التي صاحبها لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وتلك المسائل أجمع عليها السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

فتلك **العقائد** تستند إذاً في تقريرها وإثباتها إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والعقل تابع للنقل غير مستقل في تقريرها وإثباتها أو نفيها، ومهمته هي تلقي النقل وتدبره وفهمه فهما صحيحا بحيث يوافق ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام والتابعين لهم بإحسان.

وإذا فهم العقل الكتاب والسنة فهما صحيحا فإنه سيجد أن تلك الأحكام والعقائد تتفق تماما مع العقل ولا تخالفه البتة.

ولكن هل العقول معصومة من الخطأ؟ وهل يسلم جميع الناس من التأثيرات الخارجية والأهواء والمضلة التي تحجب العقل الصحيح؟ الجواب: لا.

فإن الشرك إنما وقع في الأمم السابقة ويقع في هذه الأمة بسبب الآراء الضالة والأهواء الفاسدة والعقول القاصرة وتقديمها على كلام الله وكلام رسله صلى الله عليهم وسلم، وتحريف نصوص الكتب وأحاديث الأنبياء بما يوافق تلك الأهواء والآراء إن لم يظهروا المعارضة الصريحة لها.

وهذه الأمة، أعني أمة محمد ﷺ، قد أخبر النبي ﷺ أنها سيصيبها الافتراق والاختلاف في الدين وأن سبب ذلك هو الآراء الفاسدة والأهواء المضلة المخالفة للكتاب والسنة.

ولقد حذر النبي ﷺ من ذلك، وبين لأمته الطريق الصحيح وتركها على البيضاء، وأخبر أنه لا يزيغ عنها إلا هالك، ومما جاء عنه في بيان ذلك:

١. حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا بوجهه فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فأوصنا، فقال: (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن كان عبدا حبشا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين

المهيدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)[1].

فأخبر ﷺ نصيحة لأمته أنه سيقع اختلاف كثير فيها وأوصى بالتمسك بسنته ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين، وسنته هي طريقة التي كان عليها في الاعتقاد والأخلاق والأعمال وحذر من الأهواء والآراء المحدثة المخالفة لسنته، فإن المحدثات هي البدع وكل بدعة ضلالة لا نصيب لها من الهدى.

فالاجتماع والاتفاق يكون باتباع الكتاب والسنة، والاعتصام بهما نجاة، قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣].

وقال ﷺ: (تركت فيكم شيئين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض)[2].

والاختلاف والافتراق سببه مخالفة الكتاب والسنة، وتقديم العقول الضالة والآراء الفاسدة، ولا ريب أن عقول الناس مختلفة، وأهواءهم متباينة فحينئذ يقع بينهم من الشقاق والافتراق مع مخالفتهم جميعا للحق والصواب بإعراضهم عن دلالة الكتاب والسنة، وما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين الذين اجتمعوا على الحق وتمسكوا به فاتفقوا ولم يختلفوا واجتمعوا ولم يتفرقوا.

٢. حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ (إن أهل الكتاب افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، يعنى الأهواء، كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجاري بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله)[3].

<u>ففي هذا الحديث من الفوائد ما يأتي:</u>

أ. أن هذه الأمة ستفترق في دينها، وقد وقع الأمر كما أخبر النبي ﷺ، وإن سبب الافتراق هو الأهواء وهي كل ما خالف الكتاب والسنة والجماعة.

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه - ك العلم - باب ما جاء بالأخذ بالسنة واجتناب البدع - ح(٢٦٧٦) .

[2] أخرجه الحاكم في المستدرك - ك العلم - (١ / ١٧٢) - ح (٣١٩) .

[3] خرجه أبو داود في سننه - ك السنة - باب شرح السنة - ح(٤٥٩٩).

ب. أن هذه الفرق الكثيرة كلها في النار إلا واحدة، وهذا يعني أن هذه الفرق الهالكة قد استحقت العقوبة بالنار بسبب المخالفة للكتاب والسنة وللفرقة الناجية.

ت. أن الناجية فرقة واحدة وهي الجماعة، وهم الذين اجتمعوا على الحق فتمسكوا به واعتقدوه وعملوا به ودعوا إليه، والجماعة الذين هذه صفتهم هم الصحابةﷺ ثم من سلك سبيلهم وسار على نهجهم في العلم و الاعتقاد والعمل والأخلاق.

وقد روى الحديث عن أنس ﷺ، وفيه وصف الناجين يقوله ﷺ: (ما أنا عليه وأصحابي) فالفرقة التي في الجنة هي الفرقة الناجية سلموا من الابتداع في الدين وتمسكوا بحبل الله المتين.

وهذه الفرقة صار يطلق عليها: أهل السنة والجماعة، والجماعة، والسلف، أهل الحديث، والفرقة الناجية، والطائفة المنصورة، أهل الاتباع، وهذه أوصاف لتلك الجماعة مأثورة عن النبي ﷺ أو عن الأئمة الأعلام المقتدى بهم في الدين، المشهود لهم بالعلم والبصيرة في الدين.

وفيما يلي بيان لهذه الأوصاف والتسميات.

تعريف العقيدة وموضوعها

العقيدة لغة: من (العقد) وهو الربط والشد بقوة، ومنه الأحكام والإبرام، والتماسك والمراصة والإثبات والتوثق[1]، ويطلق على العهد وتأكيد اليمين (عقد) وما عقد الإنسان عليه قلبه جازما به فهو (عقيدة).

العقيدة في الاصطلاح العام: الإيمان الجازم، والحكم القاطع، الذي لا يتطرق إليه الشك لدى المعتقد، وهذا معنى العقيدة في الاصطلاح العام بصرف النظر عن نوع الاعتقاد، حق أو باطل، وسمي عقيدة لأن الإنسان يعقد عليها قلبه.

العقيدة الإسلامية: الإيمان الجازم بالله، وما يجب له في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبكل ما جاءت به النصوص الصحيحة من أصول الدين وأمور الغيب وأخباره، وما أجمع عليه السلف الصالح والتسليم لله في الحكم والأمر والقدر والشرع، ولرسوله ﷺ بالطاعة والتحكيم والاتباع.

موضوع علم العقيدة: العقيدة من حيث كونها علما بمفهوم أهل السنة والجماعة تشمل موضوعات: التوحيد[2]، والإيمان، والإسلام، والغيبيات، والنبوات، والقدر، والأخبار، وأصول الأحكام القطعية، وسائر أصول الدين، والاعتقاد، ويتبعه الرد على أهل الأهواء والبدع سائر الملل والنحل والمذاهب الضالة، والموقف منهم.

---

[1] لسان العرب، (٣/ ٢٩٥- ٣٠٠).

[2] يشمل الربوبية والألأوهية والأسماء والصفات.

وعلم العقيدة له أسماء أخرى ترادفه، وتختلف هذه الأسماء بين أهل السنة وغيرهم فمن مسمات هذا العلم عند أهل السنة:

١. **العقيدة:** (والاعتقاد والعقائد) فيقال: عقيدة السلف وعقيدة أهل الأثر ونحوه [١].

٢. **التوحيد:** [٢] لأنه يدور على توحيد الله بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات، فالتوحيد هو أشرف مباحث علم العقيدة وغايتها؛ فسمي به هذا العلم عند السلف تغليبا.

٣. **السنة:**[٣]والسنة: الطريقة، فأطلق على عقيدة السلف السنة لاتباعهم طريقة الرسول ﷺ، وأصحابه في ذلك، وهذا الإطلاق هو السائد في القرون الثلاثة الفاضلة.

٤. **أصول الدين:**[٤] أصول الديانة، والأصول هي أركان الإيمان وأركان الإسلام، والمسائل القطعية وما أجمع عليه الأئمة.

٥. **الفقه الأكبر:**[٥]وهو يرادف أصول الدين، مقابل الفقه الأصغر وهو الأحكام الاجتهادية.

٦. **الشريعة:** [٦] أي ما شرعه الله ورسوله ﷺ من سنن الهدى وأعظمها أصول الدين.

٧. **الإيمان:** ويشمل سائر الأمور الاعتقادية.

هذه أشهر إطلاقات أهل السنة على علم العقيدة، وقد يشركهم غيرهم في إطلاقها بالتبع، كبعض الأشاعرة، أهل الحديث منهم خاصة.

وهناك اصطلاحات أخرى تطلقها الفرق، غير أهل السنة على هذا العلم، من أشهر ذلك:

١. **علم الكلام**: وهذا الإطلاق يعرف عند سائر الفرق المتكلمة، كالمعتزلة والأشاعرة[٧]ومن يسلك سبيلهم، وهو لا يجوز، لأن علم الكلام حادث مبتدع، ويقوم على التقول على الله بغير علم، ويخالف منهج السلف في تقرير العقائد.

٢. **الفلسفة**: عند الفلاسفة ومن سلك سبيلهم، وهو إطلاق لا يجوز في العقيدة، لأن الفلسفة مبناها على الأوهام والعقليات الخيالية، والتصورات الخرافية عن أمور الغيب المحجوبة.

---

[١]عقيدة السلف للصابوني .

[٢]كتاب التوحيد للبخاري – كتاب التوحيد واثبات صفات الرب لابن خزيمة.

[٣]كتاب السنة للإمام أحمد – كتاب السنة لعبدالله بن أحمد بن حنبل – السنة للخلال- السنة للعسال- السنة للأثرم – السنة لأبي داود.

[٤]أصول الدين للبغدادي- الشرح والإبانة لابن بطة – الإبانة عن أصول الديانة للأشعري.

[٥]كتاب الفقه المنسوب لأبي حنيفة.

[٦]كتاب الشريعة للآجرى – الإبانة عن الشريعة الفرقة الناجية لابن بطة.

[٧]شرح المقاصد للتفتازاني.

٣. **التصوف**: عند بعض المتصوفة والفلاسفة، والمستشرقين ومن نحا نحوهم، وهو إطلاق مبتدع لأنه ينبني على شطحات المتصوفة ومزاعمهم وخرافاتهم في العقيدة.

٤. **الإلهيات**: عند أهل الكلام، والفلاسفة والمستشرقين واتباعهم، وغيرهم، وهو خطأ لأن المقصود بها عندهم فلسفات الفلاسفة وكلام المتكلمين والملاحدة فما يتعلق بالله تعالى.

٥. **ما وراء الطبيعة**: أو (الميتافيزيقيا) كما يسميها الفلاسفة والكتاب الغربيون ومن نحا نحوهم[١]، وهي قريبة من معنى الإلهيات.

ويطلق الناس على ما يؤمنون به ويعتنقونه من مبادئ وأفكار (عقائد) وإن كانت باطلة أو لاتستند إلى دليل عقلي ولا نقلي، فإن للعقيدة مفهوما صحيحا هو الحق، وهو عقيدة أهل السنة والجماعة المستمد من الكتاب والسنة الثابتة، وإجماع السلف الصالح.

وللعقيدة أيضا مفاهيم باطلة، وهي كل المعتقدات التي تعارض أو تخالف ما جاء عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ، فإطلاق مفهوم العقيدة كمفهوم الدين، فالدين الحق (دين الله) يسمى دينا، وكذلك تدين المشركين لغير الله يسمى دينا، قال تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: ٦].

فالشيوعي: يعتنق آراء وأهواء باطلة، ويسميها عقيدة ودينا.

و**البوذي:** يعتنق آراء وأهواء باطلة، ويسميها عقيدة ودينا.

و**اليهودي:** يعتنق آراء وأهواء باطلة، ويسميها عقيدة ودينا.

و**النصراني:** يعتنق آراء وأهواء باطلة، ويسميها عقيدة ودينا.

أما العقيدة الإسلامية إذا أطلقت فهي: عقيدة أهل السنة والجماعة، لأنها هي الإسلام الذي ارتضاه الله دينا لعباده.

ونسبة أقوال الناس والفرق ومعتقداتها المخالفة للسلف إلى الإسلام لا تجعلها من العقيدة الإسلامية الحقة، بل هي معتقدات تنسب إلى أصحابها، والحق منها براء، وقد يسميها بعض الباحثين (إسلامية)، من باب النسبة الجغرافية والتاريخية، أو لمجرد دعوى الانتماء أي: أن أصحابها ومعتقديها يدَّعون الإسلام ويسمونها إسلامية، لكن الأمر عند التحقيق يحتاج إلى العرض على الكتاب والسنة في أمر الاعتقاد، فما وافق الكتاب والسنة واستمد منهما فهو الحق، وهو من العقيدة الإسلامية، وما لم يكن كذلك فيرد إلى صاحبه وينسب إليه.

---

[١] الموسوعة العربية (ص: ١٧٩٤).

التعريف بأهل السنة والجماعة

- **السنة لغة:** الطريقة والسيرة [١].
- **السنة اصطلاحا**[٢]: الهدي الذي كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ، علماً واعتقاداً وقولاً وعملاً ، وهي السنة التي يجب اتباعها ويحمد أهلها، ويذم من خالفها[٣]، وتطلق السنة على سنن العبادات والاعتقادات، كما تطلق على ما يقابل البدعة [٤].
- **الجماعة لغة:** من الاجتماع، وهو ضد التفرق، والجماعة، هم القوم الذين اجتمعوا على أمر ما[٥].
- **الجماعة في الاصطلاح**[٦]: هم سلف الأمة، من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، الذين اجتمعوا على الكتاب والسنة وعلى أئمتهم، والذين ساروا على ما عليه النبي ﷺ، وأصحابه والتابعون لهم بإحسان[٧].

فأهل السنة والجماعة: هم المتمسكون بسنة رسول الله ﷺ، والذين اجتمعوا على ذلك، وهم الصحابة والتابعون، وأئمة الهدى المتبعون لهم، ومن سلك سبيلهم في الاعتقاد والقول والعمل إلى يوم الدين، والذين استقاموا على الاتباع، وجانبوا الابتداع في أي مكان وأي زمان، وهم باقون ظاهرون منصورون إلى يوم القيامة، فأهل السنة والجماعة هم المتصفون باتباع السنة ومجانبة محدثات الأمور والبدع في الدين[٨].

---

[١] انظر: مختار الصحاح (ص: ٣١٧)، لسان العرب (١٣/٢٢٠-٢٢٨).

[٢] أقصد بالاصطلاح في الموضعين اصطلاح علماء العقيدة وأصول الدين – العقيدة الواسطية شرح الهراس.

[٣] انظر: الوصية الكبرى(ص: ٢٣)، العقيدة الواسطية شرح الهراس (ص: ١٦)، شرح الطحاوية (ص:٣٣).

[٤] انظر : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية (ص: ٧٧).

[٥] انظر : لسان العرب (٨/٥٣- ٦٠).

[٦] أقصد بالاصطلاح في الموضعين، اصطلاح علماء العقيدة وأصول الدين – العقيدة الواسطية شرح للهراس.

[٧] الاعتصام للشاطبي (١/٢٨) – العقيدة الواسطية للهراس (ص: ١٦-١٧).

[٨] الطحاوية لأبي العز (ص: ٣٣٠) – رسائل في العقيدة لابن عثيمين (ص: ٥٣).

ولا يقصد بالجماعة هنا مجموع الناس وعامتهم، ولا أغلبهم ولا سوادهم [١]، ما لم يجتمعوا على الحق، لأن النبي ﷺ ذكر أن الطائفة المنصورة (أهل السنة والجماعة) فرقة واحدة من ثلاث وسبعين فرقة، كما جاء في الحديث الصحيح، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ، قال: (تفترق اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة) [٢].

وقد **يسمى أهل السنة** ببعض أسمائهم أو صفاتهم المأثورة عن الرسول ﷺ، أو عن أئمتهم المقتدى بهم، فقد يطلق عليهم (أهل السنة) دون إضافة (الجماعة)، وقد يطلق عليهم (الجماعة) فقط، أخذا من وصف النبي ﷺ لها بذلك، كما جاء في حديث معاوية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن هذه الأمة ستفترق على إحدى وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة هي: الجماعة) [٣].

وعبارة **السلف الصالح** ترادف أهل السنة والجماعة في اصطلاح المحققين، عليها أيضا أهل الأثر، أي السنة المأثورة [٤] عن النبي ﷺ وأصحابه ﷺ.

ويسمون **أهل الحديث**: وهم الآخذون بسنة رسول الله ﷺ، رواية ودراية، والمتبعون لهدية ﷺ، ظاهرا وباطنا، فأهل السنة كلهم أهل الحديث على هذا المعنى.

وتسمية أهل السنة والطائفة المنصورة والفرقة الناجية بأنهم أهل الحديث هذا أمر مستفيض عن السلف، لأنه مقتضى النصوص ووصف الواقع والحال، وقد ثبت ذلك عن ابن المبارك، وابن المديني، وأحمد بن حنبل، والبخاري، وأحمد بن سنان وغيرهم ﷺ أجمعين [٥].

---

[١] يستثنى من ذلك عهد الصحابة والتابعين، فإن السواد الأعظم في ذلك الوقت على الحق لقرب الناس من عهد النبوة ولتزكية النبي ﷺ للقرون الفاضلة، أما بعدهم فلا عبرة بالكثرة لعموم الأدلة التي تدل على أن الناس سيكثر فيهم الخبث، وتفترق الأمة إلى ثلاث وسبعين، وإن الإسلام يعود غريبا، الخ.

[٢] أخرجه أبو داود في سننه - ك السنة - باب شرح السنة -ح(٤٥٩٦). وابن ماجة - ك الفتن - باب افتراق الأمم -ح (٣٩٩١). والترمذي- ك الإيمان - باب افتراق هذه الأمة –ح(٢٦٤٠)، وقال: حديث حسن صحيح.

[٣] السنة لابن أبي عاصم ومعها ظلال الجنة للألباني - "باب فيما أخبر به النبي ﷺ أن أمته ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة.." - (١/ ٣٢) ،وقال الألباني: حديث صحيح بما قبله وبما بعده بعد أن ذكر طرقا أخر لحديث.

[٤] مجموع الفتاوى ، لشيخ الإسلام ابن تيمية، (١٠/ ٣٦٣)- شرح الطحاوية،(ص :٤٣٩) - ذم التأويل للمقدسي، (ص:٣٣١).

[٥] سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم/٢٧٠ المجلد الأول بالجزء الثالث /ص ١٣٤-١٣٧ – سنن الترمذي/ كتاب الفتن / ص ٢٢٢٩.

وكذا سماهم كثير من الأئمة، وصدروا مؤلفاتهم بذلك، مثل: كتاب (عقيدة السلف أصحاب الحديث) ، للإمام إسماعيل الصابوني.ت:٤٤٩.

وانظر: مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، (٤/٩٤-٩٥)، فقد أطلق على أهل السنة (أهل الحديث).

والفرقة الناجية: وهي التي تنجوا من النار باتباعها سنة رسول الله ﷺ، أخذاً من قوله ﷺ: (وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاثة وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحد في الجنة، وهي الجماعة)[١].

كذا كان كثير من السلف وأئمة الدين يصفون أهل السنة بالفرقة الناجية[٢] والظاهرين على الحق.

الطائفة المنصورة: وهم الذين عناهم الرسول ﷺ، بقوله: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) [٣].

ويطلق عليهم أحياناً (الجماعة) كما أسلفت أو (أهل الجماعة)[٤].

---

[١]أخرجه أبو داود في سننه - ك السنة - باب شرح السنة -ح(٤٥٩٧) عن معاوية. وأحمد بإسناد صحيح عن أنس بن مالك ١٢٠/٣ وله شاهد عند الترمذي - ك الإيمان - باب ما جاء في افتراق هذه الأمة -ح (٢٦٤٠). وعند الحاكم في المستدرك- كتاب العلم(١٢٨/١-١٢٩) . وقد صححه الألباني في الصحيحة، المجلد الأول، رقم (٢٠٤).

[٢]العقيدة الواسطية لابن تيمية شرح الهراس، (ص:١٦).

[٣]حديث صحيح مستفيض أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والحاكم، راجع تخريج الحديث في السلسلة الصحيحة للألباني (١٣٤/٣-١٣٥)، رقم(٢٧٠).

[٤]العقيدة الواسطية لابن تيمية شرح الهراس، (ص: ١٨٠).

فالجماعة هم جماعة أهل السنة، الذين اجتمعوا على الحق، من الاجتماع، وهو ضد الفرقة كما أنها تضمنت معنى الاجتماع أيضا وهو الاتفاق وضده الاختلاف، فأهل السنة موصوفون بالاجتماع على أصول الدين، والإجماع عليها أيضاً والاجتماع على أئمة الدين وولاة الأمر.

ويوصفون أيضا بأهل الاتباع، لأن من طريقتهم: (اتباع آثار رسول الله ﷺ، باطناً وظاهراً، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وثية رسول الله ﷺ حيث قال: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) [١]،[٢].

---

[١] أخرجه ابن عاصم في كتاب السنة(١/١٩-٢٩)،ح(٣١،٥٤)، قال الألباني: إسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات، الحديث مروي في السنن والمسانيد.

[٢] انظر العقيدة الواسطية لابن تيمية شرح محمد خليل هراس (١٧٩-١٨٠).

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن **مسائل الإيمان والإسلام، والكفر والنفاق** مسائل عظيمة جداً، لأن الله ﷻ قد عَلَّقَ بهذه الأسماء السعادة والشقاوة واستحقاق الجنة والنار، ولذا فإن معرفتها ومعرفة الفروق بينها في غاية الأهمية لِما يترتب على الاتصاف بها من الأحكام الدنيوية والأخروية.
وفيما يلي شرح مختصر وبيان موجز لمدلولات هذه الأسماء:

- **أولا: الإسلام والإيمان:**

من منهج أهل السنة والجماعة الرجوع في فهم الدين والعمل به إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وأن يكون هذا الفهم والعمل موافقا لهدي الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان من أئمة الإسلام المشهود لهم بالفقه والدين.
ولذا فإننا ولله الحمد سنسير على هذا المنهج الأمين في بحث هذه المسائل وغيرها من أمور الدين رزقنا الله وإياكم حب السلف الصالح وحسن متابعتهم.

أ. عن عمر بن الخطاب ﵁ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فاسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخديه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله ﷺ : (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره). قال: صدقت. قال فأخبرني عن الإحسان؟ قال: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال فاخبرني عن الساعة....)[١].

[١] أخرجه مسلم في صحيحه – ك الإيمان - باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة – ح (٨).

وحقيقة الفرق أن الإسلام دين، والدين مصدر: دان بدين، إذا خضع وذل.

ودين الإسلام الذي ارتضاه الله، وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده، فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه، فمن عبده وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلماً، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً.

والإسلام هو: الاستسلام لله وحده، وهو الخضوع له والعبودية لله، هكذا قال أهل اللغة: أسلم الرجل: إذا استسلم.

فالإسلام في الأصل من باب العمل، عمل القلب والجوارح.

وأما الإيمان: فأصله تصديق وإقرار ومعرفة، فهو من باب قول، قول اللسان المتضمن عمل القلب.

كقول نوح عليه السلام: {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس: ٧٢] ، **وكقول إبراهيم** عليه السلام: { وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢]،

وقول السحرة الذين أسلموا: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ } [الأعراف: ١٢٦].

ولابد في الإسلام من تصديق يحصل به أصل الإيمان:

قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا} [المائدة:٤٤] ، وقال: { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} [المائدة: ١١١].

الإسلام يجمع بين معنيين: الانقياد والاستسلام، وإخلاص ذلك وإفراده، وله معنيان:

الأول: الدين المشترك: وهو عبادة الله وحده لا شريك له الذي بعث به جميع الأنبياء.

والثاني: ما اختص به محمد ﷺ من الدين والشرع والمنهاج.

مما يشتمل عليه الحديث:

١. هذا حديث عظيم الشأن جداً، يشتمل على شرح الدين كله، ولهذا قال النبي ﷺ في آخره: (فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم).

٢. ومن أهم ما نستفيده من هذا الحديث: التفريق بين مسمى الإسلام والإيمان، فالإسلام قد فسره النبي ﷺ بالأعمال الظاهرة من القول والعمل، وهي هذه الأمور الخمسة المذكورة، والتي أولها الشهادتان.

والشهادة وإن كانت ظاهرة باللسان فإنها لا تصح ولا تكون منجية من الكفر، ولا يدخل صاحبها في الإسلام إلا إذا كانت صادرة عن تصديق وإقرار قلبي بمضمونها.

وإذا نظرنا إلى المعنى اللغوي لكلمة الإسلام فإن معناها: الاستسلام يقال: أسلم: أي انقاد.

فالاسلام هو الانقياد والخضوع لله تعالى بالقلب والجوارح ولكن الانقياد والخضوع لا يُعْرَف إلا بالأعمال الظاهرة فمن هنا فسره النبي ﷺ بهذه الأمور الخمسة لأنها كلها من أعمال الجوارح الظاهرة التي تُعْلَم من صاحبها بالسماع والمشاهدة.

٣. وليس الإسلام مقتصراً على هذه الأمور الخمسة بل يشمل جميع شعائر هذا الدين الظاهرة مثل الغسل، والوضوء والجهاد،.. وإنما الشهادتان والأربعة المذكورة معهما في هذا الحديث هي أصول أعمال الإسلام التي يُبْنى عليها، ويدل على ذلك:

حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان) [١].

مما يدل على أن جميع الأعمال الظاهرة تدخل في مسمى الإسلام قوله ﷺ: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)[٢].

وكذلك ترك المحرمات داخل في مسمى الإسلام قوله ﷺ: (من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)[٣].

٤. أما الإيمان فإن النبي ﷺ قد فسره بالاعتقادات الباطنة بهذه الأمور الستة المذكورة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، أي تصديق القلب بهذه الأمور وإقراره بها.

---

[١] متفق عليه.

[٢] أخرجه البخاري – ك الرقائق - باب الانتهاء عن المعاصي-ح(٦٤٨٤).

[٣] أخرجه الترمذي وابن ماجة عن أبو هريرة.

لكن هل الإيمان هو فقط الإيمان بهذه الأمور الستة؟

الجواب: إن الإيمان أوسع من ذلك، ولكن هذه الأمور الستة هي أصوله وأسسه التي تقوم عليها، يدل على ذلك:

أ- عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان)[١].

ففي هذا الحديث جعل النبي ﷺ الإيمان شعباً كثيرة.

فقول: (لا إله إلا الله) يسمى إيمانا وهي أعلى شعب الإيمان وأفضلها، ومعنى هذا أن الأقوال الواجبة والمستحبة كلها داخلة في مسمى الإيمان، وهذا القول لابد أن يكون صادرا من قلب مصدق.

وإماطة الأذى وهي أعمال ظاهرة من باب أولى أن تسمى إيمانا وتدخل في مسمى الإيمان.

وجعل النبي ﷺ (الحياء) وهو عمل من أعمال القلب جعله من مسمى الإيمان.

وهذا فيه التنبيه على أن أعمال القلب تسمى إيمانا مثل: المحبة، والتوكل على الله، والخوف منه وخشيته، وهكذا نرى أن الإيمان المأمور به الواجب على الناس تحقيقه يشتمل على الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة.

وهذا هو معنى قول السلف: الإيمان: (تصديق بالجنان، وإقرار باللسان وعمل بالأركان) هذا هو مذهب السلف وقد حكى الشافعي رحمه الله الإجماع على ذلك أي على أن الأعمال داخله في مسمى الإيمان.

ويقول السلف أيضا أن الإيمان قول وعمل، **ويعنون بذلك أن:**

القول قولان:

قول اللسان مثل: الشهادتين، وقراءة القرآن،..

وقول القلب مثل: وهو تصديقه وإقرار.

والعمل عملان:

عمل القلب مثل: الحياء ومحبة الله والخشية والتوكل.

وعمل الجوارح مثل: إماطة الأذى عن طريق، والصلاة والصيام،..

---

[١] أخرجه مسلم في صحيحه – ك الإيمان - باب شعب الإيمان - ح (٣٥).

وبهذا التفسير للإيمان يكون الإيمان شاملاً للإسلام، ومما يدل على ذلك:

حديث وفد عبد القيس الذي في الصحيحين عن ابن عباس ﷺ فقد جاء فيه بعد أن أمرهم النبي ﷺ بالإيمان بالله وحده: (أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس).

ففي هذا الحديث فسر النبي ﷺ الإيمان بما فسر به الإسلام في حديث جبريل، وفي هذا الحديث فائدة نفسية وهي أن الإيمان الذي أمر الله تعالى به وكذا رسوله ﷺ لا يُرْجَع في معرفته إلى المعنى اللغوي وإنما يطلب بيانه من النبي ﷺ، فحقيقة الإيمان لا تُعْرف من جهة اللغة وحدها.

دلالة القرآن على أن الإيمان يشمل الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة

١. قال الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [الأنفال: ٢ - ٤].

فقوله: ((إنما المؤمنون))في أول الآيتين، وقوله: ((هم المؤمنون حقا)) في آخرهما دلالة قوية على أن الصفاته المذكورة داخلة في مسمى الإيمان، ولا يستحق العبد اسم الإيمان بدونها.

فمن هذه الصفات والأعمال:

وَجَل القلب، والتوكل على الله وهذان من أعمال القلب وهما ناشئتان عن التصديق بالله والإقرار به، وإقامة الصلاة والإنفاق أيضاً مما يشملها اسم الإيمان وهما عملان ظاهران، ولكن لابد أن يكون لهما صلة بالقلب وهو اعتقاد مشروعيتهما والإخلاص فيهما عند الأداء وهكذا الأمر في سائر الأعمال الظاهرة لابد أن يكون لهما أصل في القلب وهو التصديق والإقرار بهما، والإخلاص فيها عند الأداء.

٢. قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون: ١ - ٣] .

وهكذا نرى أن نصوص القرآن والسنة تدل على أن الإيمان حيث أُطْلق يشمل الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

- **اختلاف دلالة الإسلام والإيمان عند الاقتران والافتراق:**

١) تبين مما سبق أن الإسلام إذا قُرِنَ بالإيمان فإنه يراد بالإسلام الأقوال والأعمال الظاهرة ويراد بالإيمان الأقوال الأعمال الباطنة باعتبارها الأصل، يدل على ذلك حديث جبريل عليه السلام.

٢) أما إذا لم يقترنا بل جاء كل لفظ منهما بمفرده، فالإيمان يشمل بالإضافة إلى الأقوال والأعمال الباطنة الأقوال والأعمال الظاهرة، يدل على ذلك حديث وفد عبد قيس، وحديث شعب الإيمان، فتبين أنه إذا أُفْرِد الإيمان تضمن الإسلام.

٣) أما إذا أُفْرِد الإسلام فقد يكون مع الإسلام الإيمان الواجب، وهنا يصح إطلاق أحدهما على مسمى الآخر.

وقد يكون معه إيمان يصح به الإسلام لكنه لم يحقق بعد الإيمان الواجب لأنه قَصَّر في فعل بعض الواجبات أو ارتكب بعض المعاصي، فهنا يفترقان في المدلول فمثل هذا يقال فيه: مسلم ويقال فيه: مؤمن ناقص الإيمان، ولا يقال له مؤمن بغير تقييد، لأن الإيمان المطلق يقتضي فعل الواجبات وترك المحرمات، وهذا القدر هو الذي وعد الله أهله بالجنة والنجاة من النار مثل قوله تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} [الحديد: ٢١]، وقوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [التوبة: ٧٢].

الخلاصة:

إن حال اقتران الإسلام بالإيمان غير حال إفراد أحدهما عن الآخر وهما مع هذا يكون بينهما ارتباط في المعنى والحكم.

فلا إيمان لمن لا إسلام له: إذ لا يخلو المؤمن من إسلام يتحقق به إيمانه.

ولا إسلام لمن لا إيمان له: إذ لا يخلو المسلم من إيمان يصح به إسلامه ومثلهما في هذا الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله فهما شيئان، وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم.

فمن قال لا إله إلا الله وأنكر الرسالة لا يكون مسلما ولا قائماً بلا إله إلا الله حق القيام.

ومن شهد أن محمداً رسول الله ﷺ لا يكون قائما بهذه الشهادة حق القيام إلا من صَدَّق هذا الرسول في كل ما جاء به ومما جاء به إفراد الله ﷻ بالألوهية وهي شهادة (لا إله إلا الله) فإذا ضُمَّت شهادة (أن لا إله إلا الله) إلى شهادة (وأن محمدا رسول الله) كان المراد من شهادة (أن لا إله إلا الله) إثبات التوحيد، ومن شهادة (وأن محمداً رسول الله) إثبات الرسالة.

ومما يؤكد الفرق بين الإيمان والإسلام ما جاء في الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وسعد جالس فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إلي فقلت: (يا رسول الله، مالك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنا.فقال: أو مسلما. فسكت قليلاً. ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي فقلت: مالك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنا. فقال: أو مسلماً. ثم غلبني ما أعلم فعدت لمقالتي، فعاد رسول الله ﷺ ثم قال: يا سعد: (إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي خشية أن يكبه الله في النار)[١].

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه – ك الإيمان - باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة.- ح(٢٧). وأخرجه مسلم .

ففي الحديث دلالة على أن بين مسمى الإيمان والإسلام اختلافاً لأن النبي ﷺ أرشد سعدا أن يعدل عن وصف الرجل بالإيمان إلى وصفه بالإسلام.

والفرق بينهما ما ذكرناه آنفاً من أن الإيمان المطلق يتضمن فعل الواجبات الظاهرة والباطنة، وهذا ما لا يمكن لسعد ﷺ أن يعلمه ويطَّلعه عليه.

أما الإسلام فإنه يطلق على الأعمال الظاهرة وهذه يراها كل أحد، فإن كان في القلب تصديق وإيمان فهذا إسلام صحيح مقبول، وإن كان القلب خالياً من التصديق والإقرار، فهذا إسلام المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويؤدون شعائر الإسلام الظاهرة، وأما قلوبهم فخالية من الإيمان فهؤلاء يقال لهم مسلمين ويعاملون معاملة المسلمين في الأحكام، لأننا مأمورون بالحكم على ما يظهر لنا من أعمالهم وأقوالهم لأن ما في القلوب لا يَطَّلع عليه إلا الله وهم عند الله شر من الكافرين وفي الدرك الأسفل من النار كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [النساء: ١٤٥].

• دلالة الإيمان عند اقترانه بالعمل الصالح

تعلَّق بعض المخالفين لأهل السنة بالآيات الكثيرة التي وَرَدَتْ في اقتران الإيمان بالعمل الصالح مثل قوله تعالى: {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [العصر: ١ - ٣].

وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا} [الكهف: ١٠٧].

أقول: تعلقوا بهذه الآيات وأمثالها لتأييد مذهبهم في أن الإيمان هو التصديق فقط أو التصديق والإقرار باللسان فلا يشمل الأعمال عندهم لأن عطف العمل على الإيمان يقتضي المغايرة، فلا يكون العمل داخلاً في مسمى الإيمان، هكذا يقولون.

للجواب عن هذا كما قال إبن أبي العز:

إن عطف الشيء يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع الإشتراك في الحكم الذي ذُكر لهما، والمغايرة على مراتب:

أعلاها: أن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر ولا جزءاً منه ولا بينهما تلازم كقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [الأنعام: ١]، وهذا هو الغالب.

ويليه: أن يكون بينهما تلازم كقوله تعالى {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٤٢].وقوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [المائدة: ٩٢].

الثالث: عطف بعض الشيء عليه، كقوله تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة: ٢٣٨] ، وقوله تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: ٩٨].

وفي مثل هذا العطف وجهان:

أحدهما: أن يكون المعطوف داخلا في الثاني فيكون مذكوراً مرتين وهذا لزيادة الاهتمام به والتنبيه عليه.

والآخر: أن عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخل فيه عند الاقتران وإن كان داخلاً عند انفراده.

الرابع: عطف الشيء لاختلاف الصفتين كقوله تعالى: { غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ} [غافر: ٣].

وبناء على ما سبق فإن الآيات التي وَرَدَ فيها عطف العمل الصالح على الإيمان إما أن يقول إنها من باب عطف الجزء على الكل وبعض الشيء عليه وذلك للتنبيه على أهمية العمل الصالح وضرورة الإتيان به لمن أراد النجاة في الآخرة، وإما أن يقول في هذا الموضع يكون المراد بالإيمان التصديق ولوازمه من الأعمال الباطنة كالحب والخشية والرجاء والخوف وغير ذلك، ويراد بالعمل الصالح الأعمال الظاهرة فتشمل أعمال اللسان والجوارح.

ومثل عطف العمل الصالح على الإيمان، عطف الصلاة على العمل الصالح في مثل قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٢٧٧].

فهؤلاء المخالفون للسلف أهل السنة والجماعة هل يقولون إن الصلاة ليست من الأعمال الصالحة لأنها عطفت عليها، فهنا، عطف إقامة الصلاة على (عمل الصالحات) وهذا لا يقتضي أن يكون (إقامة الصلاة) ليست من الأعمال الصالحة.

• هل الإيمان مرادف للتصديق؟

يزعم بعض الناس أن الإيمان في اللغة هو التصديق، ولذا فإنهم يرون أن الإيمان الذي أمر الله به عباده ودعاهم إليه رسوله ﷺ هو مجرد التصديق القلبي، وبعضهم يقول التصديق القلبي واللساني، بمعنى أن الإيمان هو تصديق القلب وإقرار اللسان فقط.

فعلى المذهب الأول لا يكون العمل ولا القول داخل في مسمى الإيمان، وعلى القول الثاني لا يكون العمل داخل في مسمى الإيمان الذي أوجبه الله على عباده وأمر به ودعاهم إليه رسوله ﷺ.

وقد بَيَّنّا من قبل دلالة نصوص الكتاب والسنة على أن الإيمان يشمل اعتقاد القلب وإقرار اللسان وعمل الجوارح، وفي هذا كفاية لبيان خطأ هذين المذهبين، ولبطلان الأصل الذي بني عليه هذين المذهبين وهو دعوى الترادف بين الإيمان والتصديق.

ومع هذا فنزيد الأمر وضوحا فتقول: إن الإيمان ليس مرادف للتصديق في اللغة ويدل على ذلك:

١. اللفظان المترادفات يصح وضع أحدهما مكان الآخر، وهذا لا ينطبق على لفظ الإيمان والتصديق.

فمثلاً: إذا أخبر شخص شخصاً آخر بخبر ما، فإذا صدق المخَبرُ المخبِرَ يقال صدقه ولا يقال آمنه ولا آمن به بل يقال آمن له كما قال الله تعالى :{فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ} [العنكبوت: ٢٦] ، وقوله تعالى: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ} [يونس: ٨٣].

٢. ومما يدل على منع دعوى الترادف أيضاً أن من قال: طلعت الشمس يقال له: صدقت ولا يقال: آمنت.

٣. لفظ الإيمان لا يستعمل إلا في الخبر عن غائب بخلاف لفظ التصديق فإنه يستعمل في الخبر عن المشاهدة أو غيب، فمن أخبر عن نزول المطر لا يقال: آمناه كما يقال: صدقناه.

وهذا التفريق بين وجهي الاستعمال يدل على اختلاف في المعنى وذلك لأن (الإيمان) مشتق من الأمن فهو لذا يستعمل في خبر يؤتمن عليه المُخْبِر، كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المُخْبِر ولهذا لم يوجد في القرآن وغيره لفظ (آمن له) إلا في هذا النوع: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ} [العنكبوت: ٢٦].

فلفظ الإيمان متضمن معنى التصديق ومعنى الائتمان والأمانة كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق، ويوضح ذلك قول أخوة يوسف كما حكاه الله عنهم: { وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} [يوسف: ١٧]، أي لا تقر بخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن إليه ولو كنا صادقين لأنهم لم يكونوا عند أبيهم ممن يؤتمن على ذلك، فلو صدقوا لم يأمن لهم.

٤. ويدل على منع دعوى الترادف أن لفظ التصديق يقابل بالتكذيب فكل مخبر يقال له صدقت، أو كذبت، وصدقناه وكذبناه، بينما المعروف أن لفظ الإيمان ضده مقابله لفظ الكفر فيقال مؤمن وكافر وآمن وكفر.

ومعلوم أن الكفر لا يختص بالتكذيب، فقد يكون الكفر بالتكذيب، وقد يكون بالاستكبار ككفر إبليس: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٣٤]،وقال تعالى عن كفر فرعون وملئه: { فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} [المؤمنون: ٤٧].

وقد يكون الكفر امتناعاً وإعراضا عن الطاعة، فلو قال للنبي ﷺ أنا أُصَدِّقك، ولكني لا أَتَّبِعُك ولا أنصرك بل أعاديك وأبغضك ولا أوافقك فإن هذا لا يقال عنه مؤمن.

فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط علم أن الإيمان ليس فقط التصديق بل لابد معه من موافقة وانقياد وطاعة وموالاة.

والموافقة والانقياد والطاعة إنما تعرف بالإقرار باللسان والعمل بالأركان فعلم يقيناً أن الإيمان يشمل اعتقاد القلب وإقرار اللسان وعمل الأركان لا مجرد التصديق القلبي.

وقد نفى الله ﷻ الإيمان عمن تولى عن الطاعة في قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ } [النور: ٤٧].

٥. ولو سلمنا جدلاً أن الإيمان في اللغة هو التصديق، فالتصديق أيضاً لا يختص بالقلب فقط أو القلب واللسان بل الأفعال تسمى تصديقاً يدل على ذلك ما رواه أبو هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: (كُتِبَ على ابن آدم نصيبه من الزنى مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والإذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطى والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج ويكذبه) [١].

وهذا معروف في الاستعمال، فمن قال قولاً أو ادَّعى دعوى وجاء بعمل يوافق القول والدعوى قيل صدق فعله قوله وبناء على ذلك فإن الأعمال تدخل في مسمى الإيمان، فهي أيضا تصديق لما في القلب كما قال الحسن البصري: (ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكنه ما وقر في القلب وصدقته الأعمال)[٢].

---

[١] أخرجه مسلم في صحيحة- ك القدر -ح(٢٦٥٧).

[٢] أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه – ك الإيمان والرؤيا – ح(٣٠٣٥١).

١. زيادة الإيمان ونقصانه:

تدل نصوص الكتاب والسنة على أن الإيمان يتفاضل وأنه يزيد وينقص وأن الناس ليسوا فيه سواء، والآثار عن سلف هذه الأمة في هذا الجانب كثيرة جداً.

أ- قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا } [الأنفال: ٢] .

فالمسلم إذا تليت عليه الآيات وتدبرها ازداد فهماً لمعانيها ومقاصدها فيحصل له بذلك زيادة في علمه بالله ومحبته لطاعته ورهبته من مخالفته ما لم يكن.

وهذه زيادة في إيمان القلب ويتبع ذلك إقبال على العمل الصالح وانزجار عن المعاصي وهذا رافد آخر في زيادة الإيمان.

ب-وقوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٧٣- ١٧٥].

زيادة الإيمان المذكورة في هذه الآية هي زيادة عند تخويف المؤمنين بالعدو فإنهم لما خافوه تجمع المشركين لقتال المسلمين زادهم ذلك ثقة بالله واطمئناناً إليه وتوكلاً عليه وثباتاً على الجهاد، وتوحيداً بأن لا يخافوا المخلوق بل يخافون الخالق وحده، ويبدو هذا واضحا من جوابهم:{ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} فهذه الزيادة أيضا تضمنت زيادة إيمان القلب وعمل الجوارح المتمثل هنا في الثبات على الجهاد.

ثم إن الله سبحانه لما أنزلوا حاجتهم به كفاهم ما أهمهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم فرجعوا إلى بلدهم كما حكى الله عنهم:{ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ} [(١)]، مما أضمر لهم عدوهم.

[(١)] انظر تفسير القرآن العظيم،لابن كثير(٢/ ١٤٨).

٢. <u>الأدلة من السنة على زيادة الإيمان ونقصانه:</u>

أ. عن طارق بن شهاب قال: أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان فقام إليه رجل فقال: الصلاة قبل الخطبة، فقال:قد تُرِكَ ما هنالك. فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه. سمعت رسول الله ﷺ

يقول: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان) [١].

فالحديث واضح الدلالة في أن الإيمان يتفاوت الناس فيه لقوله ﷺ (أضعف الإيمان) فقوله ﷺ: (أضعف الإيمان) نص في أن الإيمان يتفاوت فيكون من الناس الضعيف في الإيمان والأضعف، والقوي والأقوى.

١. عن أنس ابن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: (يخرج من النار من قال: لا إله لا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن بُرَّة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة) [٢]، والمراد بالخير الذي في القلب: الإيمان.

فقد جاء في حديث الشفاعة من رواية أنس ﷺ مرفوعاً: (فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يُسْمَع لك، وسَلْ تعطه واشفع تُشَفِّع فأقول: رب أمتي. أمتي. فيقال: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها فأنطلق فأفعل. ثم ارجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسْمَع لك وسَلْ تعطه، واشفع تشفع، فأقول: أمتي. أمتي. فيقال: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها فأنطلق فأفعل)[٣].

---

[١] أخرجه مسلم ،ح(٤٩).

[٢] أخرجه البخاري ، ح(٤٤)،ومسلم ،(١٨٢/١) ، ح(١٩٣)،واللفظ له.

[٣] أخرجه البخاري ،ح(٧٥١٠)،و مسلم ،(١٨٢/١-١٨٣)،ح(١٩٣)، واللفظ له.

٣. بعض الآثار عن سلف هذه الأمة:

لا ريب أن الصحابة ﷺ هم أكثر الناس اتباعاً للكتاب والسنة، وما دامت قد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن الإيمان يزيد وينقص فقد قالوا بموجب ذلك، وتبعهم على ذلك الجماهير من التابعين واتباعهم وأئمة المسلمين لا يختلف قولهم في شيء من ذلك:

أ- عن عبد الله بن عُكَيْم قال: سمعت ابن مسعود ﷺ يقول في دعائه: (اللهم زدنا إيماناً وفقهاً) [(١)].

ب-عن عمارة بن ياسر ﷺ قال: ثلاث من جمعهن جمع الإيمان: (الإنصاف من نفسك والإنفاق من الإقتار، وبذل السلام للعالم) [(٢)]، فقوله: (جمع الإيمان) يدل على أن الإيمان مراتب ودرجات وهذا مما يدل على أنه يتفاضل.

ت-أما الآثار عن أئمة أهل السنة من التابعين ومن بعدهم فلا تحصى كثرة، يمكن مراجعتها في كتاب الإيمان لابن أبي شيبة والإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام وكتاب السنة للإمام أحمد وكتاب السنة للخلال وكتاب السنة للالكائي وغيرها من تواليف أهل السنة والجماعة.

[(١)] أخرجه الإمام أحمد في كتاب السنة رقم (٧٩٧) بإسناد صحيح.

[(٢)] أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان رقم(١٣٢) بإسناد صحيح. وذكره البخاري في صحيحة تعليقا.

الاستثناء في الإيمان

المقصود من الاستثناء في الإيمان أن يقول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، وإذا قيل له: أنت مؤمن؟ قال: أرجو، أو يقول: أؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله و.

والاستثناء في الإيمان مذهب أهل السنة والجماعة، وهم يستثنون لسببين:

أحدهما: أن الإيمان المطلق يتضمن فعل كل الواجبات وترك جميع المحرمات، وادعاء الإنسان لهذه المنزلة فيها تزكية لنفسه وقد نهى الله عن تزكية النفس بقوله : {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: ٣٢] ، فإن شهادته لنفسه بالإيمان كشهادته لنفسه بالجنة إذا مات على هذه الحال، وأي تزكية أعظم من هذه.

الآخر: أن هذه شهادة لنفسه بما لا يعلم، فإنه لا يدري أجاء بالأعمال كما أمر الله حتى تقبل منه أم لا، فالعبد لا يجزم بقبول عمله بل كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ } [المؤمنون: ٦٠].

قالت عائشة: يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف؟ فقال: (لا يا بنت الصديق بل هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه)[١].

فالاستثناء إذاً يكون مخافةً واحتياطاً للعمل.

٢. بعض الآثار السلفية في ذلك:

أ عن علقمة: قال رجل عند عبد الله يعني ابن مسعود إني مؤمن. قال: قل إني في الجنة.. ولكننا نؤمن بالله ومرئكته وكتبه ورسله[٢].

فقد أنكر ابن مسعود ﷺ على رجل قوله (إني مؤمن) لأنه بمعنى إني في الجنة ومعلوم أن المؤمن لا يشهد لنفسه بالجنة، ثم أرشده إلى الصواب.

ب عن الحسن بن عبيد الله قال إبراهيم النخعي: إذا قيل لك: أمؤمن أنت؟ فقل: أرجو[٣].

ج عن يحيي بن سعيد القطان يقول: ما أدركت أحداً من أصحابنا ولا بلغنا إلا على الاستثناء[١] .

---

[١] أخرجه الترمذي وأحمد وصحح الحاكم وواقعه المذهبي.

[٢] أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان رقم (٢٢). وعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل في كتاب السنة رقم (٦٥٥) وإسناده صحيح عندهما.

[٣] أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة رقم (٧١٨).

د. سئل الإمام أحمد ما تقول في الاستثناء في الإيمان قال: نحن نذهب إليه. قيل الرجل يقول: أنا مؤمن إن شاء الله. قال: نعم [٢].

ومما يحسن التنبيه إليه:

١. أن الاستثناء لا يعني الشك فيما في القلب من التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، بل هو لما ذكرنا آنفاً.

فالمسلم يستثنى في إيمانه مع أنه يقطع بما في قلبه من التصديق، ولا يشك في ذلك وقد دل القرآن والسنة على أنه يجوز الاستثناء في الشيء المستقبل وإن كان لا يشك في وقوعه

مثل قوله تعالى: {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} [الفتح: ٢٧].

ومثل السنة: أمر النبي ﷺ لعائشة عند زيارة القبور أن تقول: (السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون)[٣] ، فقوله: (وإنا إن شاء الله بكم لاحقون) استثناء فيما لاشك فيه.

٢. أنه يجوز ترك الاستثناء في الإيمان إذا كان قصد المتكلم بيان ما في قلبه من التصديق بالله تعالى وبما جاء به الرسول ﷺ فإن هذا ما يجزم به المرء ويعلم من نفسه أنه ليس بكافر.

لكن ينبغي أن يُقْرَن بما يُبَيّن أنه لم يُرِد الإيمان المطلق يتضمن فعل الواجبات وترك المحرمات، فإن الإيمان بهذا المعنى لا يجوز إطلاقه إلا مع الاستثناء كما سبق.

٣. إن السلف كانوا يكرهون سؤال الرجل لغيره: أمؤمن أنت؟ ويكرهون الجواب عليه لأن هذه بدعة أحدثها (المرجئة) الذين يقولون إن الإيمان هو التصديق وحده أو التصديق والإقرار، فصاروا يوردون هذا السؤال على أهل السنة فربما أجابهم السني بقوله: (أنا مؤمن) وذلك لما يعلم من نفسه أنه ليس بكافر، وأنه مصدق بكل ما جاء به الرسول ﷺ، فصاروا يحتجون على أهل السنة بأنكم أثبتم بجوابكم هذا أن الإيمان هو التصديق، فلما علم أئمة أهل السنة مقصدهم صاروا يكرهون الجواب أو يُفَصِّلون فيه ويُفَرِّقون بين الإيمان المقيد والإيمان المطلق الذي يقتضي فعل الواجبات وترك المحرمات فيجزمون بالأول ويستثنون بالثاني.

---

[١] أخرجه الخلال في السنة رقم (١٠٥١) وإسناده صحيح.

[٢] أخرجه الخلال في السنة رقم (١٠٥١) وإسناده صحيح.

[٣] أخرجه مسلم في صحيحة ، (٦٧١/٢)،ح(٩٧٥).

<u>المخالفون لمذهب السلف أهل السنة والجماعة</u>

قد عرفنا مما سبق أن:

١. الإيمان اعتقاد القلب وإقرار اللسان وعمل بالأركان.

٢. أنه يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي.

٣. أن من مذهب أهل السنة الاستثناء في الإيمان كأن يقول: (أنا مؤمن إن شاء الله أنا مؤمن أرجو) أو نحو ذلك من العبارات التي لا تفيد القطع بالإيمان لنفسه ولا لغيره.

وقد خالف أهل السنة طوائف من الناس في مسمى الإيمان وفي زيادته ونقصانه وفي الاستثناء منه، وفيما يلي تعريف مختصر بهذه الطوائف مع بيان مذهبها في هذه المسائل وأوجه الرد عليها:

<u>أولاً: الجهمية:</u> وهم أتباع جهم بن صفوان السمرقندي.

فهؤلاء قالوا الإيمان مجرد المعرفة (معرفة القلب) بالله وبرسله ويُرَد عليهم من وجوه:

الأول: أن هذا القول مخالف للنصوص الكثيرة من الكتاب والسنة التي ذكرناها سابقاً والتي تدل على أن الإيمان يشمل قول اللسان وعمل الجوارح بالإضافة إلى مافي القلب.

الثاني: أنه يلزم من هذا القول أن يكون فرعون وقومه مؤمنين فإنهم عرفوا صدق موسى وهارون عليهما السلام، ولم يؤمنوا بهما ولهذا قال موسى لفرعون: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ } [الإسراء: ١٠٢] ،وقال: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل: ١٤].

ومعلوم أن اليهود والنصارى الذين كانوا يعرفون الرسول ﷺ كما يعرفون أبناءهم لم يَكْفِ ذلك لاعتبارهم مؤمنين بل كانوا كافرين به معادين له ويلزم من ذلك أن يكون إبليس مؤمناً كامل الإيمان فإنه عارف بربه كما حكى الله عنه: { قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [الحجر: ٣٦].

والجهمية الإيمان عندهم شيء واحد، لا يتفاضل والناس فيه سواء.

ثانياً: الكُرَاميَّة: وهم أصحاب محمد بن كُرَام المتوفى سنة ٢٥٥ هـ.

ذهب محمد بن كُرّام وأصحابه إلى أن الإيمان هو التصديق باللسان دون القلب وأنكروا أن يكون معرفة القلب أو شيء غير التصديق باللسان إيماناً، وزعموا أن المنافقين الذين كانوا على عهد محمد ﷺ كانوا مؤمنين على الحقيقة.

ويكفي في بطلان هذا القول أنهم اعتبروا المنافقين مؤمنين على الحقيقة لأنهم أقروا باللسان والله ﷻ يقول:

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ } [البقرة: ٨]، فلم يعتد الله بقول اللسان ما دام القلب خالياً من التصديق والإقرار.

- ثالثاً: بعض الناس ذهب أن الإيمان هو التصديق فقط **وهذا تقوله طائفتان:**

١. أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري وأكثر أتباعه ويقال لهم: الأشعرية والأشاعرة.

٢. أبو منصور الماتُريدي وأتباعه ويقال لهم: الماتُريدِيَّة.

وأوجه الرد عليهم:

١. أن هذا القول مخالف لنصوص الكتاب والسنة التي دلت على أن الإيمان يشمل قول القلب وعمله اللسان وعمل الجوارح. [ارجع إليها].

٢. ما تقدم لنا سابقا من أن الإيمان ليس مرادفاً للتصديق، بل يتضمن التصديق ومعنى الائتمان والأمانة. [ارجع إليها].

- **رابعاً:مرجئة الفقهاء:**

وهؤلاء يقولون الإيمان هو تصديق القلب وإقرار اللسان، أما الأعمال فلا يدخلونها في مسمى الإيمان، فلا يعدون الصلاة والزكاة والجهاد و.. من الإيمان، ويرون أن من قَصَّر في العمل فهو عاص معرض نفسه للوعيد مع اعتقادهم بأنه كامل الإيمان، إيمانه كإيمان جبريل ومحمد ﷺ.

ولا ريب إن هذا القول وإن كان أقرب إلى قول أهل السنة ما سبق إلا أنه قول مخالف لنصوص الكتاب والسنة التي فيها البيان الواضح على دخول الأعمال في مسمى الإيمان، مثل قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } [الحجرات: ١٥].

وقول النبي ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة أفضلها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان)[1].

[عند الرد على مرجئة الفقهاء توضح دللالة النصوص السابقة على دخول الأعمال في مسمى الإيمان].

وكل هذه الفرق السابقة الإيمان عندهم شيء لا يتفاضل فلا يزيد ولا ينقص، ولا ريب أن هذا مصادمة للآيات الكثيرة التي فيها النص على أن الإيمان يزداد، ومن يقبل الزيادة يقبل النقص والتفاضل، وبذلك جاءت السنة وآثار الصحابة والتابعين.

ولا محل للاستثناء عند هذه الفرق، بل يُحَرِّمونه ويرون أن من استثنى فقد شك في إيمانه ومن شك في إيمانه فقد كفر.

وقد عرفت من قبل أن استثناء أهل السنة والجماعة ليس على معنى الشك وإنما لأن الإيمان المطلق يقتضي فعل الواجبات وترك المحرمات، فمن شهد لنفسه بالإيمان فقد شهد لنفسه بالجنة، وفي هذا تزكية لنفسه وهذا لا يجوز لمسلم أن يدعيه، ولأن المسلم لا يجزم بأنه جاء بالعمل كما أمر الله ورسوله ﷺ حتى يُقْبَل منه أم لا.

غير أن أبا الحسن الأشعري قد خالفهم في مسألة الاستثناء ونصر مذهب أهل السنة في الاستثناء في الإيمان، وهو يحاول دائماً أن ينصر قول أهل الحديث فيما يحصل النزاع فيه بينهم وبين الفرق الأخرى، ولكن خبرته بعلم الكلام أكثر، ولم يكن خبيراً بمذهب أهل الحديث فإذا نصر مذهبهم نصره على ما يراه من الأصول التي تلقاها من غيرهم فيقع في ذلك من التناقض ما ينكره هؤلاء وهؤلاء، ولهذا خالفه كثير من أصحابه في مسألة الاستثناء فمنعوا منه.

وهذه الفِرَق السابقة يقال لها المرجئة من الإرجاء وهو التأخير، فأنهم يشتركون في تأخير شيء عن مسمى الإيمان ويَقْصرون الإيمان على بعض مسماه الذي دل عليه الكتاب والسنة.

فالجهمية: أَخَّروا القول وعمل الجوارح وعمل القلب وكذا **أبو الحسن الأشعري** وبعض أتباعه **وأبو منصور الماتُريدي** وأصحابه فزعموا أن الإيمان المعرفة أو التصديق **والكرامية:** أَخَّروا تصديق القلب وعمل الجوارح فزعموا أن الإيمان مجرد القول **ومرجئة الفقهاء**: أبو حنيفة وحماد بن سليمان وغيرهما: أَخَّروا الأعمال فقالوا الإيمان تصديق القلب وإقرار اللسان.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه – ك الإيمان - باب شعب الإيمان - ح (٣٥).

خامساً: المعتزلة: وهم أصحاب واصل بن عطاء الغزال.

سموا معتزلة لما اعتزلوا مجلس الحسن البصري أحد أئمة أهل السنة والجماعة من التابعين.

وهذه الفرقة اشتهرت بالغلو في تقديس العقل واعتباره المصدر الأول للاعتقاد فكل ما يرونه متعارضاً مع العقل أَوْلوه وصرفوه عن ظاهره المراد منه بشتى التأويلات.

أما في **مسألة الإيمان** فهم يرون الإيمان اعتقاد القلب وإقرار اللسان وعمل الجوارح.

لكنهم خالفوا أهل السنة في تسمية مرتكب الكبيرة وفي حكمه فقالوا: مرتكب الكبيرة فاسق لا يقال عنه مؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين المنزلتين.

أما حكمه في الآخرة: فهو من أصحاب النار الخالدين فيها وذلك إذا لم يكن قد تاب في الدنيا من كبيرته.

سادساً: الخوارج: ومبتدؤهم الطائفة التي خرجت على علي ﷺ حين رضى بالتحكيم بينه وبين معاوية ﷺ، ثم تشعبوا إلى فرق كثيرة وصارت لهم مقالات مختلفة، وفي مسألة الإيمان قالوا: الإيمان اعتقاد القلب وإقرار اللسان وعمل الجوارح لكنهم خالفوا أهل السنة والجماعة في اسم مرتكب الكبيرة وفي حكمه فوافقوا المعتزلة في أن مرتكب الكبيرة خالد مخلد في النار يوم القيامة أما في الدنيا فقالوا أنه كافر.

فإذاً المعتزلة والخوارج متفقون على حكم صاحب الكبيرة في الآخرة أما في الدنيا **فعند المعتزلة** يكون خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر فهو في منزلة بين المنزلتين، **وأما الخوارج** فيقولون يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر فيصير كافراً، هذا على المشهور من مذهب هذا على المشهور من مذهب أكثر فرقهم، ونصوص الكتاب والسنة تدل على أن الفاسق من أهل القبلة لا يخرج من الإيمان بارتكاب ما ارتكب من الكبائر مالم يكن مستحلا، بل هو من جملة المؤمنين.

قال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات: ٩، ١٠] .

فقد أثبت الله لكلا الطائفتين الإيمان مع اقتتالهما ومع بغي إحداهما على الآخرى وجعلهما أخوة في الإيمان ولم يخرج الباغية من هذه الأُخُوَّة، والزاني والسارق والقاذف جعل الله لهم حدوداً يعاقبون بها ولو كانت هذه الأعمال تُخْرج من الإيمان لكان أهلها مرتدين والمرتد يقتل بكل حال، وليس المقصود استقصاء النصوص الدالة على بطلان هذا القول وإنما أردنا التنبيه فقط.

وأيضاً هم في الآخرة لا يخلدون في النار بل من دخلها منهم يخرج بشفاعة الشافعين وأولهم النبي ﷺ وإما بعد أن ينقوا من ذنوبهم بما يعذبون به في النار أي بعد أن يأخذوا جزاءهم من العذاب بقدر ذنوبهم، وقد يغفر لمن شاء من أصحاب الكبائر فلا يعذبهم عليها، كما قال الله ﷻ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ١١٦].

<u>الإيمان بالله تعالى</u>

• **<u>الإيمان بالله تعالى يتضمن:</u>**

١. الإيمان بأن الله تعالى وحده المنفرد بالخلق والملك والتدبير
وهذا يسمى توحيد الربوبية.

٢. الإيمان بأن الله تعالى له أحسن الأسماء وأكمل الصفات، لا مثيل له في شيئ من ذلك مع تنزيهه عن كل نقص.
وهذا يسمى توحيد الأسماء والصفات.

٣. الإيمان بأن الله تعالى وحده المستحق للعبادة ، وإفراده بها في القلب واللسان والعمل .
وهذا يسمى توحيد الأولوهية.

أولاً: توحيد الربوبية:

أ- التوحيد: مصدر وحّد يوحِّد توحيداً

ويعني جعل الشيء واحداً بالعلم أو العمل.

فمعنى وحدت الله تعالى: اعتقد أنه واحدٌ منفرد مما له من الأسماء والصفات والأفعال والحقوق لا يشاركه في شيء منها أحدٌ غيره.

وعلى ذلك فالتوحيد في الشرع: هو إفراد بالعبادة مع اعتقاد وحدانيته ذاتا وصفاتا وأفعالاً(١)

قال تعالى: {إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [النساء: ١٧١] ، وقال: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ } [الإسراء: ٢٢]

ب- الربوبية: مصدر ربّ بربُّ رباً وربوبية.

يقال: ربّ الأمر: أصلحه(٢)

قال الراغب الأصبهاني: "الربّ في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالا إلى حد التمام"(٣)

وقد يأتي الربَّ مصدراً، وقد يراد به إسم الفاعل (راب) .

فتوحيد الربوبية بمعنى اعتقاد أن الله هو وحده الرب لا رب للعاملين سواه ويدخل في هذا المعنى اعتقاد أن الله هو الخالق وحده:

قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} [الحشر: ٢٤]

{ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الرعد: ١٦]

---

(١) لوامع الأنوار البهية لمحمد بن أحمد السفاريني(١/ ٥٧)بتصرف.

(٢) القاموس المحيط مادة (ربّ).

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٣٦)

الأدلة على توحيد الربوبية:

الإفراد بأن الله وحده هو الرب المنفرد بالخلق والملك والتدبير قضية مسلمة عن عامة الناس لا ينكر ذلك إلا مكابر معائد، بل هذا التوحيد أسبق للقلوب والعقول من غيره من أقسام التوحيد ،ومن الادلة على هذا التوحيد:

١. **دليل الفطرة:**

الفطرة بكسر التاء: بمعنى الخلقة والحالة التي خلق الله عليها عباده.

فقد فطرة الله عباده علم خلقة تقتضي معرفته ومحبته وتعظيمه، والإقرار بأنه الخالق وحده، وافتقارهم إليه ورغبتهم في التقرب له.

فالإقرار بأن هو وحده الخالق (أي توحيد الربوبية) بعض مضمون الفطرة فإن الفطرة تقتضي الإيمان بالله تعالى بربوبيته وصفات وألوهيته.

يوضح ذلك قول الرسولﷺ: "ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أوينصرانه أو يمجسانه"[١]

قال أبو العباس بن تيمية:" فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه ومحبته وإخلاص الدين له، وموجبات الفطرة ومقتضاها تحصل شيئاً بعد شيء، بحسب كمال الفطرة، إذا سلمت عن المعارض "[٢].

وهذه الفطرة عامة كل مولود يفطر عليها ويؤيد هذا العموم قوله تعالى : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [الروم: ٣٠]

فدلت الآية على أن إقامة الدين لله حنيفا هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

---

[١] متفق عليه أخرجه البخاري برقم (١٣٥٩) (الفتح ٢١٩/٣) ومسلم (٢٠٤٧/٤) رقم(٢٦٥٨).

[٢] درءالتعارض (٣٨٣/٨).

ومما يؤيد أن الإقرار بواحدانية الخالق :

أ- لجوء الناس إليه إذا اشتدت بهم الحاجة ومسهم الضر، كما قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} [الإسراء: ٦٧] فرجوع الإنسان إلى الله عند الشدائد دليل على أن يقر بفطرته بربه، ويقر بعمله وقدرته، وتفرده بكشف الضر وإزالة الكرب إن شاء.

وهو المالك وحده لكل شيء: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة: ١٧].

وهذا يقتضي أنه يكون الرب سبحانه هو المدبر لأمر السموات والأرض وبينهما كما أنه هو المنفرد بخلقها وإيجادها.

قال تعالى: { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } [الرعد: ٢].

فالرب هو المنفرد بالخلق والملك والتدبير وهذا هو معنى توحيد الربوبية.

والرب معرفاً لا يطلق إلا على الله سبحانه، فلا يقال للمخلوق ربّ.

وإنما يقال للمخلوق رب كذا بالإضافة.

ومن هذا قول النبي ﷺ عن ضالة : "فذرها حتى يلقاها ربها"[١]

ومنه: رب الدار، ورب المال، ورب البيت ونحو ذلك.

ورب القبيلة هو السيد المطاع فيها.

فعند الإضافة ينصرف إلى معان كثيرة، وأما اسم (الرب) لله تعالى، فقد قال ابن جرير: "فربّنا جلّ ثناؤه: السيد الذي لا شِبْه لهُ، ولا مثل في سُؤدده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر"[٢].

---

[١] أخرجه البخاري في كتاب المعلم رقم(٩١) ، فتح البخاري ١٨٦/١)، ومسلم (١٣٤٦/٣) رقم(١٧٢٢).

[٢] جامع البيان (٦٢/١).

ب- دعوة الرسل إلى أفراد الله بالعبادة دليل على أن أقوامهم كانوا يقرون بالخالق وإن الله هو ربهم لا لله رب لهم سواه ولكنهم يتخذون معه أندادا يشركونهم معه في العبادة.

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: ٥٩]

وكذلك قال صالح لقومه وهود لقومه ، وسائر الأنبياء.

يوضح ذلك أن الفلاسفة والمتكلمين الذين أتعبوا أنفسهم في محاولة الاستدلال العقلي على وجود الرب الخالق لولا إقرارهم بفطرتهم بوجوده لما بحثوا له عن دليل عقلي، ولا علموا أن هذا الدليل أو ذاك يدل عليه.

٢. دليل بعثة الأنبياء وآياتهم:

فقد كان الله يؤيد رسله بالآيات التي يسميها الناس المعجزات لتكون دليلا على صدقهم في دعواهم، وقد سمى الله الآية بينة وبرهانا وذلك لقوة دلالتها على المطلوب.

فإذا جاء الرسول إلى قومه ودعاهم إلى أفراد الله بالعبادة فههنا ثلاثة أمور:

أ- دعواه أنه رسول.

ب-أن الله رب ورب العالمين هو الذي أرسله سواه كان المخاطب يقر بوجود الخالق أو لا يقر.

ج-أنه مرسل ليدعوهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة.

وجرت العادة أن المرسل إليهم يطلبون آية وبينه على دعوى الرسل، فينزل الله ما يشاء من الآيات فتكون الآية حينئذ دليل على صدقه فتثبت بها الرساله، والمرسل أيضا ضمنا.

وذلك لأن آيات الأنبياء حدث من جنس لا يقدر عليه البشر، فحصول الآية عند دعوى الرسالة دليل على صدق الرسول وهذا يتضمن إثبات المرسل وهو الله تعالى[(١)] .

وتبين صحة هذا الدليل بما قص الله علينا من نبأموسى عليه السلام مع فرعون الذي كان يتظاهر بإنكار الرب عز وجل.

[(١)] انظر: درء تعارض العقل والنقل(٤١/٩).

٣. دليل الآيات

والمراد بالآيات هنا المخلوقات، المشهورة كالسموات والأرض وما فيهما من عجائب الصنع وبدائع الحكمة، فإن العاقل إذا نظر إليها وتفكر فيها أيقن أن لها خالقا خلقها وربا سواها وأحكامها لا يمكن لذي عقل ان ينكر هذا إذا سلم من الهوى.

ولما كذب فرعون موسى وقال له: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ }فأجابه موسى ﷺ : {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ} [الشعراء: ٢٤]

ومثلها في الدلالة قوله تعالى : {قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} [الشعراء:٢٨]

فدلت هذه الآيات على أن اليقين بالله الرب الخالق أعظم من اليقين بغيره وإن الإقرار به من لوازم العقل.

وتقرير الاستدلال بالآيات على وحدانية الخالق

أن هذه الأشياء، السماء والأرض، والنبات والنجوم ... موجودات مشاهدة فإما أن تكون هي التي أوجدت نفسها، أو ليس لها موجود خالق أو لها خالق أوجدها بقدرته ودبرها بحكمته.

والعقل السليم يحكم ببطلان الاحتمالين الأولين، ويقر بالثالث وهو المتيقن [(١)].

وقد أشار الله إلى هذا الاستدلال بقوله تعالى: { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ } [الطور: ٣٥]

ومما ينبغي التنبيه عليه أن الآيات القرآنية التي وجهت العقول للنظر في الآيات الكونية سبقت لإثبات وحدانية الله في الألوهية واستحقاقه لها وهي دالة بطريق الأولى على وجود الخالق وإثبات الربوبية [(٢)].

[(١)] انظر : الرياض الناضرة للسعدي (ص: ٤٨)

[(٢)] انظر: تفسير ابن كثير.

ثانياً : توحيد الأسماء والصفات

إن معرفة الله ﷻ هي أجل المعارف وأكمل المطالب ونهاية الغايات، إنها معرفة لا غنى للإنسان الذي يشعر بإنسانيته وتميزه عن سائر الحيوانات فضلاً عن غيرها عنها، بل هذه الحاجة مغروسة في فطرة الإنسان التي فطره الله ﷻ عليها.

إن نفسه لن تستقر وإن باله لن يهدأ وإن قلبه لن يسكن ويطمئن إلا عندما يتعرف على خالقه ويتأله له، وكلما ازداد طمأنينةً وسكوناً وراحة وتزداد تبعاً لذلك محبته لخالقه وشعوره بفقره إليه.

ولما كانت معرفة الله بهذه المنزلة والضرورة للعبد فقد عرف الله نفسه لخلقه بما بث في هذا الكون من شواهد ربوبيته ووحدانيته وعلمه وحكمته وبما أوحى لرسله عليهم السلام من الأخبار عن أسمائه الحسنى، وما ينبغي له من صفات الكمال وما يتزه عنه من صفات النقص.

وقد سلك القرآن الكريم سبيلين للتعريف بالله ﷻ وبيان صفاته وما ينبغي له من الكمال وما يُنَزَّه عنه من النقص:

المسلك الأول: الحديث عن صنع الله ومخلوقاته، وإرشاد العقول وتنبيه الأذهان إلى ما فيها من عجائب الخلق ودقائق الصنع وما فيها من إحكام ونظام وإعجاز يشير بعظمة الله سبحانه ويدل على سعة علمه وعظيم قدرته.

اقرأ مثلاً: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [البقرة: ١٦٤]، وقوله تعالى: { فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا} [عبس: ٢٤، ٢٥].

المسلك الثاني: الكلام المباشر عن الله سبحانه، عن ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى وأفعاله بما يملأ قلب الإنسان محبةً وتعظيماً وإجلالاً له سبحانه لما يعلم من تفرده سبحانه بكل صفات الكمال وتَنَزُّهِهِ عن كل صفات النقص، والآيات في هذا كثيرة جداً لا نحتاج معها لضرب أمثلة.

المقصود بتوحيد الأسماء والصفات

المراد بتوحيد الأسماء والصفات الاعتقاد الجازم بانفراد الله سبحانه بالأسماء الحسنى والصفات العلى، وأنه سبحانه لا مثيل له في شيء من ذلك من خلقه مع اعتقاد تنزيهه ﷻ عن النقائص والعيوب.

كيف يحقق المسلم هذا التوحيد؟

يحقق المسلم هذا التوحيد إذا أثبت لله سبحانه ما أثبته لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العلى أو أثبته له رسوله ﷺ، ونفي عنه ما نفاه الله ﷻ عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ مع اعتقاد أن الله ﷻ لا مثيل له في أسمائه وصفاته .

ولهذا فإن كل من قرأ القرآن وعلم شيئاً من السنة مما يختص بأخبار الصفات وآمن بها وصدق الله سبحانه وصدق رسوله ﷺ وقال بظاهر هذه النصوص التي يدل عليه الكلام فهو مثبت لله ﷻ ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ على ما يليق به سبحانه من غير مماثلة للمخلوقين.

مذهب السلف أهل الحديث أهل السنة والجماعة:

قد قلنا مراراً أن أهل الحديث أهل السنة والجماعة يتعبون الكتاب والسنة، ويتمسكون بهما ولا يحيدون عنهما ولذا فإنهم رحمهم الله تعالى في باب أسماء الله وصفاته على الحق البين والهدى الواضح يصفون الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل، وينفون أيضاً ما نفاه نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ مع تنزيه الله عن كل النقائص والعيوب التي تنافي كمال صفاته.

المقصود بالتكييف والتمثيل والتحريف والتعطيل:

١. **التكييف:** هو أن يثبت الصفة ويقول على كيفية كذا فيذكر لها كيفية معينة.

فأهل السنة يثبتون الصفات ولا يذكرون لها كيفية معينة فيثبتون مثلاً: اليد، والوجه، والنزول على أنها صفات كمال الله ﷻ أما كيفياتها فَيَكِلون علمها إلى الله لأن الله ﷻ أخبر بالصفة ولم يخبر بكيفيتها.

وهذا معنى قولنا عن أهل السنة: (إثبات بلا تكييف).

٢. التمثيل: هو أن يقول القائل صفات الله مثل صفات المخلوقين أو يقول ذلك في صفة معينة كأن يقول لله يد كيد الإنسان أو وجه كوجهه أو يقول نزول الله إلى السماء الدنيا كل ليلة مثل نزول الإنسان، وهذا لا يجوز.

وأهل السنة يثبتون الصفات لله ﷻ وينفون مماثلة صفات الله لصفات المخلوقين وهذا معنى قولنا: (إثبات بلا تمثيل).

٣. **التحريف:** يقال: حَرَّفْت الشيء عن وجهه: إذا أملته وغيرته وتحريف الكلام إمالته عن المعنى المتبادر إلى معنى آخر لا يدل عليه اللفظ إلا باحتمال مرجوح.

مثل قول الأشاعرة في قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]: استولى فإن اللفظ لا يدل على هذا المعنى الذي حرفوا الكلام إليه **ومثل قولهم** في قوله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ} [المائدة: ٦٤] قالوا: اليد هنا بمعنى النعمة.

فلزم من هذا التحريف نفي المعنى الحق الذي دل عليه الكتاب الكريم وإثبات معنى آخر لا يدل عليه اللفظ بحسب سياق الكلام.

فقولنا أهل السنة يصفون الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف يعني من غير تفسير لنصوص الصفات بمعانٍ باطلة تخالف ظاهرها المفهوم من سياق الكلام بل يثبتون المعنى الموافق للظاهر.

٤. التعطيل: من العطل، وهو الخلو والفراغ والترك، ومنه قوله تعالى: {وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ} [الحج: ٤٥]. أي متروكة وهي التي أهملها أهلها وتركوها، والمراد بالتعطيل هنا نفي صفات الخالق سبحانه وإنكار قيامها بذاته كما ذهب إلى ذلك الجهمية وغيرهم، فالتعطيل نفي للمعنى الحق الذي تدل عليه آيات الصفات وأخبارها دون أن يذكر لها معنى آخر.

الأسس التي يرتكز عليها فهم آيات الصفات وأخبارها

يقوم فهم أهل السنة والجماعة لآيات الصفات وأخبارها على ثلاثة أسس من جاء بهما فقد وافق الصواب وقال بالحق وكان على الاعتقاد الصحيح الذي كان عليه النبي ﷺوأصحابه الكرام، وهذه الأسس قد دل عليها القرآن الكريم دلالة صريحة، وهي:

١. **الأساس الأول:**

تنزيه الله سبحانه عن أن يشبه شيء من خصائصه شيئاً من خصائص المخلوقين فالله ﷻ لا مثيل له، في ذاته أو في أسمائه أو في صفاته أو في أفعاله.

والدليل على هذا الأساس العظيم قوله سبحانه: {فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى: ١١]، وقوله سبحانه: { فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} [النحل: ٧٤]، وقوله سبحانه {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [الإخلاص: ٤].

وعلى هذا الأساس نفهم أن ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات والأفعال يليق بذاته، ولا يشبه شيء من ذلك أسماء أو صفات أو أفعال المخلوقين.

٢. **الأساس الثاني:**

الإيمان بما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، لأنه لا أحد أعلم بالله من الله، قال تعالى: { قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ} [البقرة: ١٤٠]، ولا أعلم بعد الله بالله من رسوله ﷺ الذي قال في حقه: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى } [النجم: ٣، ٤].

وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: {كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى: ١١] فسمى نفسه السميع البصير، وهذا يدل على أن له سمعاً وبصراً، وهذا الإثبات جاء بعد نفي لمثل لله سبحانه.

فعلم من ذلك: أن هذه الأسماء وما تدل عليه من الصفات لائقة بكمال الله تعالى، فَتُثْبَتْ له سبحانه لأنه هو الذي أثبتها لنفسه، مع اعتقاد أنها لا تماثل أسماء وصفات المخلوقين.

٣. الأساس الثالث:

قطع الطمع عن إدراك حقيقة ذات الله، أو كيفية صفاته، لأن الله ﷻ أعظم وأجل من أن تحيط به العقول، ويدل على هذا الأساس قول الله تبارك وتعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه: ١١٠].

ولكن عدم الإحاطة بكيفية صفات الله تعالى لا يسوغ لنا نفي هذه الصفات التي أثبتها الله لنفسه، أو أثبتها له رسوله ﷺ، فنحن نؤمن بوجود الله سبحانه مع أننا لا نحيط علماً بذاته ولا نعرف حقيقة هذه الذات، ونعتقد أن ذاته لا تماثل ذوات المخلوقين، فكذلك يجب علينا أن نؤمن بأن له صفات حقيقية، وهذه الصفات ثابتة لذاته، لائقة به سبحانه، مع عدم إدراك لكيفية هذه الصفات، فكما أن إثباتا لذات الله لا يعني إدراك حقيقة هذه الذات، فكذلك إثباتنا لصفاته لا يعني إدراكنا لكيفية هذه الصفات.

ولا يجوز أن نسأل عن كيفية صفاته، فلا تقول مثلاً: كيف تكون يد الله، أو كيف ينزل أو كيف استوى على العرش، أو كيف يغضب، كما لا يجوز لنا أن نسأل عن كيف تكون ذاته، فإن هذا من الغيب الذي لم يطلعنا الله تعالى عليه، لا في كتابه ولا على لسان رسوله ﷺ.

وقد نهى الله تعالى عن القول بلا علم، فقال سبحانه: { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } [الإسراء: ٣٦].

فالحذر الحذر من التكييف، وإن ألقاه الشيطان في قلبك فأعلم أنه من نزغاته، إما ليحملك على نفي الصفة بدعوى التنزيه، أو يحملك على تشبيه الصفة مخلوقة بدعوى تحقيق الإثبات، وليس لك من عاصم من نزغات الشيكان، إلا باللجوء إلى الله فإنه المعاذ والملجأ، قال تعالى: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأعراف: ٢٠٠].

تقسيم الصفات من حيث إمكان معرفتها عن طريق العقل

يمكن تقسيم الصفات من حيث إمكان معرفتها بالعقل إلى قسمين:

- **القسم الأول: صفات يمكن معرفتها بالعقل، وتسمى صفات عقلية:**

وهذه مثل صفات الإرادة والقدرة والعلم، فالعقل يدرك ضرورة إثبات هذه الصفات للخالق، وذلك لأن الفعل مرآة لبعض خصائص فاعلة، وفي كل مصنوع دلالات على بعض صفات صانعة.

فإذا نظرنا إلى هذا الكون بما فيه من سماء ونجوم وأرض ونبات وحيوان وإنسان، وما يجري فيه من تغيرات، أدركنا يقيناً أن خالق هذا الكون مريد لخلقه وإيجاده على هذا النحو الذي هو عليه.

ونعلم بيقين أن الخالق له قدرة تامة وعلم محيط، فإن الفعل المُحْكَمْ المُتْقَنْ لا يقع إلا من مريد لما يخلق ويفعل، قادر على ما يريده عالم به، فالعاجز لا يُتَصَوَّر منه الفعل، والجاهل لا يتأتى منه فعل محكم متناسق.

فهذا الكون الضخم الهائل وما فيه من نظام دقيق يربط بين جزيئاته يدل على اتصاف الخالق سبحانه بالقدرة المطلقة والعلم الشامل، وكلما ازدادت معرفة الإنسان بما في هذا من إحكام ونظام كلما تجلى له من قدرة الخالق وعلمه ما يبهر عقله ويأخذ بِلُبِّهِ.

وقد أرشد الله ﷻ الناس إلى النظر في ملكوت السموات والأرض ليتعرفوا على عظمته وجلاله، اقرأ مقلاً قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ...} الآيات إلى قوله تعالى: {كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} [ق: ٦- ١١].

- **<u>القسم الثاني: الصفات الخبرية:</u>**

وهي التي لا يمكن معرفتها بمجرد العقل، وإنما تثبت لله ويؤمن بها لورود الخبر الصادق بها.

ونعني بالخبر الصادق، القرآن والسنة، فكل ما أثبته الله لنفسه من الصفات، أو أثبته له رسوله ﷺ نؤمن به ونثبته لله ﷻ من غير تشبيه بشيء من صفات المخلوقين، مثل صفة اليد، والوجه، والتقدم، والاستواء على العرش، ونزوله سبحانه وإثباته ومجيئه.

وسنتناول بعض هذه الصفات بشيء من التفصيل فيما بعد إن شاء الله تعالى.

تقسيم الصفات من حيث تعلقها بمشيئة الله تعالى:

تنقسم صفات الله من حيث تعلقها بالمشيئة إلى قسمين:

القسم الأول: الصفات الفعلية: وهي التي تتعلق بمشيئة الله مثل صفة النزول، الضحك الحب، والكره، والغضب وهكذا، فالله ﷻ ينزل متى يشاء، وكيف شاء، ويحب من يشاء، ويغضب على من يشاء.

وكل صفة تعلقت بمشيئة الله تعالى فإنها تابعة لحكمته، وقد تكون حكمته معلومة لنا وقد نعجز عن إدراكها، ولكننا نعلم بيقين أنه سبحانه لا يشاء شيئاً إلا وهو موافق لحكمته، كما يشير إليه قوله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } [الإنسان: ٣٠].

القسم الثاني: الصفات الذاتية: وهي الصفات اللازمة لذات الله تعالى، لا تنفك عنها مثل صفة السمع والبصر والعظمة والعين واليد والوجه.

فهذه وأمثالها لا تتعلق بالمشيئة، بل هي لازمة لذات الله سبحانه.

قواعد عامة في فهم آيات الصفات وأخبارها وفق المنهج السلفي

١. أسماء الله وصفاته توقيفية:

بمعنى أن إثبات صفة أو اسم لله ﷻ يتوقف فيه على وروده في الكتاب والسنة.

كما قال الإمام أحمد رحمه الله: (لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والسنة)[(١)].

٢. كل ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ فهو حق يجب إثباته لله ﷻ ومعناه معروف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامة، وهذا معنى القول السلف في آيات الصفات وأخبارها (أمروها كما جاءت).

وبعضهم يقول: (أمروها كما جاءت بلا كيف) بمعنى أن معانيها واضحة فقراءتها تفسرها فلا يجوز تفسيرها بما يخرجها عن ظاهرها المراد منها والذي تدل عليه ألفاظها وسياقها.

ومما يدل على ذلك أن الإمام مالك جاءه رجل فقال: (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى؟ فأطرق الإمام مالك برأسه حتى علاه الرحضاء، ثم قال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معلوم، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً)، فأمر به فأخرج.

فقول الإمام مالك: (الاستواء غير مجهول) يعني أن معناه في اللغة معروف وقوله: (الكيف غير معقول) يتم بيانه في القاعدة التالية.

٣. كيفية الصفات لا يعلمها إلا الله ﷻ.

والسلف يثبتون الصفات ويكلون العلم بكيفيتها إلى الله ﷻ، الأسماء والصفات من قبيل المحكم لأن معانيها واضحة بينة، وأما كيفياتها فهذا من العلم الذي لا يعلمه إلا الله فالسلف يثبتون الصفات ويفهمون معانيها ولكن يُفَوِّضون الكيفية، ولهذا فمن نسب إلى السلف تفويض المعاني فقد كذب أو أخطأ عليهم، فهم يفهمون معاني الصفات والمراد بها يؤمنون بها ويفوضون العلم بكيفية.

---

(١) مجموع الفتاوى ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ،(٥/ ٢٦).

٤. و كل ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ فيجب تنزيه الله عنه، ونفي هذا الوصف عن الله مثل:

اللغوب: (وهو الإعياد والتعب)، {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [ق: ٣٨]، والسنة والنوم: {لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ} [البقرة: ٢٥٥].

٥. أما الألفاظ المحدثة التي لم يَرِد إثباتها ولا نفيها في الكتاب أو السنة فلا تثبت ولا تنفى، بل لابد من معرفة مراد المتكلم بها، فإن أراد بها معنى حقاً يليق بذات قُبِلَ المعنى الحق، وإن أراد معنى باطلاً لا يليق بالله ﷻ رُدّ، ويرشد إلى استعمال الألفاظ التي وردت في الكتاب والسنة، وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقاً ولم يُرَد جميع معناه بل يتوقف في اللفظ ويفسر المعنى، ثم يرشد إلى استعمال الألفاظ الصحيحة الدالة على المعاني الصحيحة، وهي الألأفاظ الواردة في الكتاب والسنة.

فلو قال المبتدع: ((الله ليس في جهة)) فلا ينفي هذا ولا يثبت لأن لفظ الجهة لم يرد إثباته في القرآن ولا في السنة، بل يستفصل القائل عن مقصوده ((بلفظ الجهة)) وماذا يريد به؟ فإن أراد بالجهة شيء موجود غير الله فهذا يكون مخلوقاً، والله ﷻ ليس داخلاً في المخلوقات، فالله أعظم من أن يحيط به شيء من مخلوقاته.

فأما قول القائل: ((الله ليس في جهة)) يكون معناه صحيح لكن اللفظ مبتدع لما فيه من إجمال ((أي عدم وضوح المراد)).

وإن أراد بلفظ الجهة ما فوق العالم فلا ريب أن الله فوق العالم مباين للمخلوقات، ويكون قول القائل: ((الله ليس في جهة)) باطل معنى ولفظاً لأن المعنى حينئذ يكون الله ليس فوق العالم، وهذا خلاف نصوص القرآن والسنة التي تدل على أن الله في العلو، فوق العرش والعرش أعلى المخلوقات قال تعالى: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]، وقال تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى: ١].

٦. القول في الصفات كالقول في الذات.

من المتقرر عند الجميع أن ذات الله ﷻ ليست كذوات المخلوقين، فكما أن العقول تقبل هذا الحكم فيجب عليها أن تقبل أن ذات الله متصفة بصفات حقيقية لا تماثل صفات المخلوقين.

فيقال لله علم وقدرة، وكلام ووجه ويد، وأنه استوى على العرش، وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، وهذه الصفات لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين، كما ان ذاته سبحانه لا تشبه شيئا من ذوات المخلوقين.

وهذه القاعدة تصلح حجة على من نفي الصفات أو نفي بعضها بحجة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين فهو لاشك يؤمن بأن ذات الله ليست كذوات المخلوقين فيلزمه إذاً أن يقر بأن صفات الله ليست كصفات المخلوقين، إذ لا فرق بين ما أثبته ونفاه، فالكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات.

٧. القول في بعض صفات الله كالقول في بعضها الآخر.

ذلك لأن صفات الله بابها واحد والتفريق بينها بالإيمان ببعضها ونفي بعضها الآخر وحمله على معان غير مرادة من ظاهر اللفظ باطل لا يقبله العقل.

فالأشاعرة مثلاً: يثبتون بعض الصفات فيقولون: ((إن الله حي بحياة، وعليم بعلم، وقدير بقدرة، وسميع بسمع، وبصير ببصر، ومتكلم بكلام، مريد بإرادة)).

ويجعلون هذه الصفات حقيقية لا تشبه صفات المخلوقين، فإذا جاؤوا إلى نصوص القرآن والسنة التي فيها إثبات صفة المحبة والرضا والغضب والاستواء على العرش، لم يثبتوا لله هذه الصفات التي أثبتها الله لنفسه أو أثبتها له رسوله ﷺ بزعم أن هذه الصفات من خصائص المخلوقين فيجب تنزيه الله عنها وتأويلها بما لا يقتضي التشبيه فيما يزعمون.

فيقال لهم: لا فرق فيما أثبتموه ونفيتموه بل القول في أحدهما كالقول في الآخر.

فإن قالوا: إن إرادته وقدرته وعلمه و.... صفات تليق بالله سبحانه، وللمخلوقين إرادة وقدرة وعلم تليق بهم ولاتشبه إرادة الله إرادة المخلوقين ولا قدرته قدرتهم ولا علمه علمهم، قيل لهم كذلك ينبغي أن تقولوا إن محبة الله تليق به ولا تشبه محبة المخلوقين، وكذلك وجهه ليس كوجوههم ويده ليست كأيديهم واستوائه على العرش ليس كاستوائهم ونزوله ليس كنزولهم.

وهكذا يجب أن تقولوا مثل هذا في سائر الصفات التي صرفتموها عن معانيها الحقيقية إلى معان غير مرادة من ألفاظها.

فكما أثبتوا الإرادة والقدرة ولم تعتقدوا في ذلك تشبيهاً ولا يستلزم التشبيه بصفات المخلوقين فيجب أن تطردوا هذا القول في سائر الصفات، وأما الإقرار بالبعض ونفي البعض الآخر فهذا تناقض لا يقبله منكم العقلاء.

٨. يجب تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وكل ما نافي صفات الكمال الثابتة له سبحانه فهو مُنزه عنه.

فمثلاً: الله قوي قدير، فكل ما نافي قوته وقدرته يُنْفى عنه، ولذا ينفى عنه العجز والكسل والضعف والتعب.

وينزه الله تعالى عن الأكل والشرب لأن هذا ينافي كمال حياته ومنال غناه عن غيره.

٩. من منهج القرآن والسنة أن إثبات الصفات فيها يأتي مفصلاً والنفي مجملاً.

فمثل الإثلات المفصل: الآيات والأحاديث التي فيها ذكر أسماء الله وصفاته على وجه التفصيل:

أ قوله تعالى: { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥].

ب قوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ} [الإخلاص: ١، ٢].

ج قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [التحريم: ٢]، في آيات كثيرة، ومثلها : {وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [الروم: ٥٤] ،وقوله تعالى: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى: ١١] ، وقوله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: ٦٤]، {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: ٢٧].

ولا ريب أنه كلما ازدادت معرفة العبد بصفات الكمال التي يتصف بها الله كلما ازدادت محبته لربه، وامتلأ قلبه بتعظيمه وإجلاله وافتقاره إليه في كل شأن من شؤونه وهذه حقيقة العبودية.

وأما النفي فيأتي مجملاً:

مثل قوله تعالى: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } [مريم: ٦٥]، وقوله: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [الإخلاص: ٤]، {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة: ٢٢]، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١].

ففي النفي المجمل إثبات وحدانيته في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

وقد يأتي أحياناً نفي مفصل، وهذا مع مافيه من دلالة على أن المنفي نقص وعيب ففيه أيضاً إثبات لكمال ضد المنفي، مثل قوله تعالى: { وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩] ، فنفي الظلم وهو نقص وعيب لثبوت كمال ضد الظلم وهو العدل، وكذلك قوله تعالى:{وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [ق: ٣٨]، نفي اللغوب لكمال قدرته، أما النفي الصرف فلا مدح فيه.

كما قال الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لا يغدرون بِذِمَّة ولا يظلمون الناس حَبَّةَ خردل

فنفي الغدر والظلم عن القبيلة المعينة ليس مقصود الشاعر منه مدحهم بالوفاء والقدرة والقوة وإنما مراده وفصهم بالخور والعجز والضعف لأن نفي الغدر والظلم اقترن بتصغيرهم بقوله: ((قبيلة)) الذي يدل على احتقارهم وتقليل شأنهم.

والنفي المفصل طريقة أهل البدع المخالفين للقرآن والسنن، يقولون مثلاً عن الله ﷻ: ((ليس بجسم ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا بذي رطوبة ولا يبوسة ولا حرارة ولا برودة ولا طول ولا عرض)).

وهذا النفي المجرد مع كونه لا مدح فيه، فيه إساءة أدب مع الله فلو قيل للسلطان أو الأمير: أنت لست بزبال ولا حجام ولا حائك، لم يكن القائل مادحاً للحاكم أو الأمير ويحق للحاكم تأديبه.

أما السلف أهل السنة والجماعة فإنهم سلكوا سبيل السلامة عن علم ومعرفة، فعبروا عن الحق بالألفاظ الشرعية، فتقيدوا بما في الكتاب والسنة، فأثبتوا ما أثبته الله لنفسه أو أثبت له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات ونفوا عنه ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ، وهذا دليل على تمسكهم الكتاب والسنة قولاً وعملاً واعتقاداً.

المخالفون لطريقة السلف أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات

قد عرفنا أن السلف ﷺ يصفون الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ من غير تكييف لا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل.

فلا يجعلون لصفات الله كيفية معينة بل يكلون علم كيفيات الصفات لله ﷻ.

ولا يمثلون صفة الله بصفات أحد من خلقه، بل يؤمنون أن صفات الله تليق بكماله وعظمته وصفات المخلوقين تليق بحالهم وضعفهم.

ولا يحرفون معاني الأسماء أو الصفات ويصرفونها إلى معان غير مرادة من ألفاظها، فإن هذا من الإلحاد في أسمائه.

وقد ذم الله الذين يفعلون ذلك فقال: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٨٠].

ولا يعطلون الله عن صفاته بنفي الصفات أو الأسماء التي أثبتها لنفسه أو أثبتها له رسوله ﷺ، وهم مع ذلك ينفون عن الله سبحانه ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ.

وقد خالف أهل السنة في هذا المنهج طوائف:

- **الطائفة الأولى: المشبهة (الممثلة):**

وهؤلاء غلو في إثبات الصفات حتى شبهوا صفات الله بصفات المخلوقين:

والتشبيه ينتشر في بعض فرق الرافضة المتقدمة كالهشامية أصحاب هشام بن الحكم الرافضي والبيانه أصحاب بيان بن سمعان، وهذا يزعم أن الله على صورة الإنسان وأنه يهلك كله إلا وجهه، تعالى الله عما يقول، وهشام بن سالم الجواليقي يزعم أيضاً أن الله على صورة الإنسان وأن له حواس كحواس الإنسان.

الشبه التي علقت في قلوب المشبهة:

إنما ذهب هؤلاء إلى أن صفات الخالق مثل صفات المخلوق، لأنهم لم يفهموا من ظاهر نصوص آيات الصفات وأخبارها إلا ما هو من جنس صفات المخلوق، قالوا: لأن الله قد ذكر أن له وجهاً ويداً، وسمعاً وبصراً.... والله إنما يخاطبنا بما نعقل ونعرف، ونحن لا نعرف من هذه الألفاظ إلا ما تدل عليه من صفات المخلوقين، فإذاً صفات الخالق مثل صفات المخلوقين.

الرد على شبهتهم:

1. هذا الغلو في الإثبات لا ريب أنه كفر فإن الله ﷻ هو الخالق وما عداه من الموجودات مخلوق، والخالق غير المخلوق، وقد نفى الله أن يكون له مثل فقال:{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى: ١١]، وقال: {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} [النحل: ٧٤]، وقال جل شأنه: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [الإخلاص: ٤].

فكيف يكون المفهوم من آيات الصفات مثل صفات المخلوقين، وقد نفى الله أن يكون له مثيل أو ند أو كفؤ، فالمشبه في الحقيقة إنما يعبد وثناً أو صنماً صورة له خياله.

قال نعيم بن حماد أحد أئمة أهل السنة:

(من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ كفر، وليس في إثبات ما وصف الله به نفسه أو وصفه رسوله ﷺ تشبيه)[1].

---

[1] العلو للعلي الغفار ، للإمام الذهبي ،(ص: ١٧٢)

٢. ويقال لهم أيضاً الاتفاق في الأسماء لا يقتضي الاتفاق في حقائق مسميتها وكيفها فاليد اسم عام فإذا أضيفت إلى الإنسان صارت يده معلومة معروفة، وإذا أضيفت إلى الجمل صارت أيضاً معلومة معروفة، ولا يعني هذا أن يد الإنسان مثل يد الجمل وقل مثل هذا في سائر الصفات.

ومعلوم قطعاً التباين والاختلاف بين يد الإنسان ووجه عينه ويد الجمل ووجه الجمل في الكيفية والحقيقة والوصف، فإذا كان الاختلاف معلوماً مدركاً بين الإنسان والجمل وكلاهما مخلوق فلا ريب أن الاختلاف بين صفات الخالق وصفات المخلوق أعظم تبايناً وأكثر وضوحاً عند العقلاء.

ويعلم بذلك أن ما يضاف لله سبحانه من الأسماء والصفات يليق بكماله وعظمته وما يضاف إلى المخلوقين يناسب حالهم وضعفهم، فتؤمن إذاً أن يد الله ووجهه....، وعلمه وقوته....، وحبه وكرهه ورضاه....، واستوائه ونزوله.... لا تشابه صفات المخلوقين.

- **الطائفة الثانية: (المعطلة):**

والمقصود بالتعطيل هنا نفي صفات الخالق كلها أو بعضها.

وأول من ابتدأ بالكلام في نفي صفات الله ((الجعد بن درهم)) فإنه أول من أنكر أن الله استوى على العرش حقيقة، وحرف الآية عن معناها الحق فقال المراد استولى، وأن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، وقد ذكر المؤرخون أنه لما انتشرت مقالته الكفرية ظفر به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق، فصلى صلاة العيد ثم خطب فقال:

((إني مضح بالجعد بن درهم لأنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً)).

ولهذا يشير ابن القيم رحمه الله في قصيدته المشهورة الموسومة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية إلى هذه القصة فيقول:

لأجل ذا ضحى بالجعد خالد	القسري يوم ذبائح القربان
إذ قال إبراهيم ليس خليله	كلا ولا موسى الكليم الداني
شكر الضحية كل صاحب	سنة لله درك من أخي قربان

ثم إن هذه المقالة تلقفها ((جهم بن صفوان)) عن الجعد بن درهم وأظهرها ونشرها فنسبت إليه، ثم ظفر به نصر بن يسار فأمر سالم بن أحوز فضرب عنقه في سنة ١٢٨هـ لكن بعد أن زرع شراً عظيماً نشر فساداً عريضاً.

ثم لم تلبث هذه المقالة إلا أن تطورت لما عربت الكتب الرومية واليونانية في حدود المائة الثانية، فزاد البلاء، ولما كانت في حدود المائة الثالثة انتشرت هذه المقالة التي كان السلف يسمونها مقالة الجهمية بسبب بشر بن غياث المريسي وطبقته.

وكلام الأئمة مثل مالك وسفيان بن عيينة وابن المبارك وأبي يوسف صاحب أبي حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي والفضيل بن عياض وغيرهم كثير في ذمهم وتضليلهم.

وتشبعت هذه الطائفة إلى ثلاث فرق رئيسية هي:

1. **الجهمية:**

وهؤلاء هم أصل هذه الضلالة، وهم الغلاة من المعطلة وقد نفوا الأسماء الحسنى والصفات العلى، فيزعم جهم أنه لا يجوز أن يوصف الخالق بصفة يوصف بها خلقه، لأن ذلك يقتضي تشبه الخالق بالمخلوق.

وهذه الفرقة كَفَّرَها أكثر علماء أهل السنة لغلوهم في نفي الصفات، ولأمور أخرى في مسائل العقيدة مثل قولهم: ((أن الجنة والنار تفنيان)).

ونفيهم لصفات الخالق كان فراراً من تشبيه الخالق بالمخلوق فيما يزعمون، فوقعوا فيما هو شر من ذلك، وهو تشبيه الخالق بالمعدوم فإن المعدوم لا يوصف بصفة ثابتة له.

ثم جاء من بعدهم من أوغل في النفي فصاروا يقولون أن الله لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت ولا عالم ولا جاهل، لأنهم يزعمون أنهم إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات، وإذا وصفوه بالنفي شبهوه بالمعدومات فسلبوا عنه النقيضين وهذا ممتنع بداهة، ويستلزم هذا نفي ذات الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

والرد على هؤلاء:

من المعلوم أن الخالق وهو الله ﷻ موجود والمخلوقات موجودة ولا يلزم من الاتفاق في اسم الوجود أن يكون وجود الخالق مثل وجود المخلوق، بل وجود الخالق يخصه ووجود المخلوق يخصه مع إن اسم الوجود حقيقةً للخالق والمخلوق.

وكذلك الأمر في الأسماء والصفات المطلقة فإنها إذا أضيفت إلى الله تعالى كانت أسماء وصفات له لا يشركه فيها غيره تليق بكماله وعظمته، وإذا أضيفت إلى المخلوق صارت أسماء له وصفات حقيقية تناسب حاله.

فمثلاً: اسم (الحي) إذا أطلق هكذا يدرك العقل له معنى كلياً في الذهن، ولكن ليس لهذا الذي في الذهن مسمى موجود في الخارج.

فإذا قلنا: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥] ، صار اسم الحي مختص بالله تعالى فهو اسم يليق بكماله وعظمته وإذا قلنا: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} [الروم: ١٩] ، صار الحي هنا اسم لبعض مخلوقات الله فهو مختص بالمخلوق.

ولكن العقل يفهم من الاسم المطلق (الحي) قدراً مشتركاً بين المسميين، وعند الاختصاص يفيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق، وكذلك يقال في سائر الأسماء والصفات.

فمثلاً: قد سمى الله نفسه عليما حكيما بقوله: {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: ١٧].

وسمى بعض عباده حليماً فقال: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} [الصافات: ١٠١] ، والمراد هنا إسماعيل.

وسمى اسحق عليم بقوله: {وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} [الذاريات: ٢٨] ، ولا يقتضي هذا تشبيهاً، فلا يقال العليم كالعليم والحليم كالحليم.

وسمى الله ﷻ صفاته بأسماء، وسمى صفات عباده بنظير ذلك فمثلاً: قال سبحانه: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ} [البقرة: ٢٥٥] ، وقال: {أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ} [النساء: ١٦٦] ، فهذا علم الله تعالى وهي صفة كمال له تليق بعظمته وجلاله، وسمى صفة المخلوق علماً في مثل قوله تعالى: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ } [يوسف: ٧٦] ، وقال: {فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ } [غافر: ٨٣] ، والعلم هنا صفة للمخلوق تناسبه وتليق به، وقل مثل هذا في سائر الصفات، الرحمة والقدرة واليد والوجه والاستواء على العرش.

فلابد من كل هذا إثبات ما أثبته الله لنفسه ونفي مماثلته لخلقه، فمن قال ليس له علم ولا قوة ولا رحمة ولا كلام ولا يحب ولا يرضى ولا استوى على العرش وليس له يدان ولا وجه، فهذا معطل جاحد ممثل لله بالمعدومات والجمادات، ومن قال: له علم كعلمي أو قوة كقوتي أو حب كحبي أو يدان كيدي أو استواء كاستوائي فهذا مشبه ممثل له بالحيوانات.

فالحق في هذا الباب هو الوسط وهو: ((إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل)).

يعني إثبات الصفات من غير اعتقاد أن صفات الخالق مثل صفات المخلوقين، أي إثبات صفات الخالق مع نفي مشابهتها لصفات المخلوقين.

وتنزيه بلا تعطيل: يعني تنزيه الخالق عن مشابهة المخلوقين مع إثبات ما يستحق من صفات الكمال.

وبعبارة أخرى: تنزيه الخالق يكون بإثبات صفاته مع نفي مماثلتها لصفات المخلوقين لا بنفي صفاته وتعطيله منها.

٢. **المعتزلة:**

وهؤلاء أخذوا فيما أخذ عن الجهمية نفي الصفات، فهم ينفون صفات الله ﷻ فلا يثبتون لله سمعاً ولا بصراً ولا حياةً وهكذا سائر الصفات.

وخالفوا الجهمية فأثبتوا لله الأسماء الحسنى فيسمون الله عالماً قادراً حياً سميعاً بصيراً.

لكنه إثبات لا حقيقة له، لأنهم نفوا المعاني التي تدل عليها الأسماء الحسنى، فإن الأسماء الحسنى العالم القدير السميع والحي تدل على معان هي صفات العلم والقدرة والسمع والحياة.

وهم أثبتوا أن الله عالم بمعنى أنه عالم بذاته، لا أن له صفة هي العلم، وقدير بذاته لا بقدرة، وسميع لا بسمع.

وننبه هنا إلى أن بينهم اختلاف في تفسير كون الله عالماً قادراً سميعاً مع اتفاقهم على نفي الصفات وما ذكرته هنا هو المشهور عنهم.

شبهة المعتزلة في نفي الصفات:

يرى المعتزلة أن القدم أخص أوصاف الله تعالى، فإذا أثبتوا لله سبحانه صفات قديمة مثل: ((والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر))، تعدد القدماء وهذا ينافي التوحيد الذي هو أحد أصولهم.

فالمعتزلة قد فهموا من التوحيد على أنه وحدة الذات القديمة بأن لا يكون لها صفات قديمة زائدة عليها.

يقول واصل بن عطاء وهو رأس المعتزلة:

((إن من أثبت لله معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلاهين)).

ثم لم يزل يتطور فكر الاعتزال، فلما ترجمت الكتب اليونانية والفارسية إلى العربية والتي كانت تشمل على الفلسفة تأثروا بها، فأخذ فكرهم منحى فلسفياً غريباً بعيداً عن الكتاب والسنة.

الرد على شبهتهم:

أنهم تصوروا أن الصفات غير الذات، وبالتالي اعتقدوا أن إثبات الصفات لله تعالى يؤدي إلى تعدد القدماء، وهذا خطأ في التصور، فإن الصفات صفات لذات الله سبحانه، والقدم من خصائص الذات الموصوفة بتلك الصفات، فليس هناك تعدد في القدماء كما يزعمون بل هناك ذات واحدة قديمة موصوفة بصفات الكمال التي أثبتها الله لنفسه أو أثبتها له رسوله ﷺ.

فالصفة لا تقوم بنفسها، بل لابد أن تقوم بالذات وقِدَمها تابع لقدم الذات فليس هناك ذات مجردة عن الصفات ولا صفات متعددة مجردة عن الذات حتى يمكن أن يتصور تعدد القدماء، بل الموصوف بصفاته إله واحد غير متعدد وتعدد الصفات باعتبار معانيها.

شبهة أخرى للمعتزلة:

يرون أيضاً أن إثبات الصفات يقتضي تشبيه الخالق بالمخلوق، لأنهم فيما يزعمون لو أثبتوا لله علماً وسمعاً و. ويداً ووجهاً فلزم من هذا أن يكون علم الخالق كعلم المخلوق وكذا في الصفات الأخرى، لأنهم لا يعرفون هذه الصفات إلا فيما هو مخلوق والله مُنزه عن مماثلة المخلوقين، فيلزم من ذلك نفي هذه الصفات عن الله.

الرد عليهم:

كما قلنا من قبل أن الاتفاق في الأسماء العامة التي في الذهن لا يلزم منه تماثل مسمياتها في الخارج، وإن الأسماء والصفات في الخارج تخصص وتتقيد بحسب ما تضاف إليه، ويكون بينها من الفروق ما تتميز به عن بعضها فيكون ما يضاف لله ﷻ يليق بكماله وعظمته وما يضاف للمخلوقين يناسب حالهم.

وشبهة هؤلاء الذين ينفون الصفات أو بعضها أنهم لم يفهموا من آيات وأخبار الصفات إلا ما هو من جنس صفات المخلوقين فاضطروا إلى نفي الصفات عن الله فراراً من التشبيه فوقعوا في شر منه، وهي تعطيل الله عن صفات كماله، ولو أعطوا النصوص حقها من الفهم والنظر لأدركوا أن إثبات الصفات لا يقتضي تشبيه الخالق بالمخلوق.

٣. الأشاعرة: وهم أتباع أبي الحسن الأشعري:

نشأ الأشعري على مذهب الاعتزال، وأخذ عنهم علم الكلام ومن أبرز شيوخه أبي علي محمد بن عبدالوهاب الجبائي، ثم إنه بعد أن بلغ سن الأربعين ترك هذا المذهب الذي نشأ عليه ولم تختلف المصادر التي ترجمت لأبي الحسن الأشعري في ذكر هذه الحقيقة.

وقد مر أبو الحسن الأشعري في ثلاثة أحوال:

الحال الأول: حال الاعتزال وهذه التي أشرنا إليها آنفا بمعنى أنه كان يثبت الأسماء الحسنى وينفي الصفات.

والحال الثاني: إثبات الصفات العقلية السبع وهي: ((الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام)).

والحال الثالث: إثبات الصفات كلها من غير تكييف ولا تشبيه جرياً على منوال السلف.

وهذا بين واضح في بعض كتبه وخاصة مثل كتاب المقالات والإبانة الذي بين فيه عقيدته بياناً واضحاً.

والأشعرية التي تنتسب إليه لا تقول بقوله في الطور الثالث، ولا في طور اعتزاله بل هم يستمدون من أقواله التي كان عليها في الطور الثاني، وهذا المذهب قد تغلظ على أيدي أتباعه وخاصة الباقلاني[١]، وإن كان هو نفسه يثبت كثيراً من الصفات الخبرية: ((اليد، الوجه، الاستواء)).

وما زال المذهب يتطور حتى جاء من بعده ممن يتنسب إلى الأشعري ونفى هذه الصفات، وصار الإثبات مقتصراً عند المتأخرين على الصفات العقلية السبعة: ((الحياة القدرة، الإرادة، العلم، السمع، البصر، الكلام))، وماعداها يؤولونه ويصرفونه عن ظاهر المراد، فاستقر هذا المذهب على هذا النحو.

وإذا قارنت بين أقوالهم وشبههم التي يوردونها لنفي الصفات الخبرية وغيرها رأيتها من جنس شبه المعتزلة وخاصة بشر المريسي، ذلك الذي نصر الاعتزال ونشره، ويمكن أن تلاحظ هذا من خلال رد الدارمي على بشر المريسي.

---

[١] محمد بن الطيب بن محمد.

فالخلاصة: أن الأشعرية التي تنتسب إلى أبي الحسن الأشعري اليوم ليست على مذهبه الأخير الذي مات عليه والذي نشره في كتبه الأخيرة كالمقالات والإبانة.

ونحن الأن حين نتكلم عن الأشاعرة، فلا نعني أبا الحسن الأشعري نفسه، وإنما هؤلاء الأتباع الذين ينسبون أنفسهم إليه.

<u>قول الأشاعرة في الأسماء والصفات:</u>

مما تقدم عرفنا أن متأخري الأشاعرة يثبتون الأسماء الحسنى والصفات العقلية السبعة، ويؤولون ما عداها ويفسرونها بغير الظاهر المراد منها هروبا من التشبيه فيما يزعمون.

وهم لم يثبتوا هذه الصفات السبع لأن القرآن دل عليها، وإنما أثبتوها كما يزعمون لأن العقل دل على اتصاف الله بها ومن ثم لم يجدوا حرجاً في نفي سائر الصفات بدعوى أن العقل لم يدل على اتصاف الخالق بها، ولأن في إثباتها تشبيهاً للخالق بالمخلوق لو أخذ بظاهرها فيما يزعمون.

ثم أخذوا يصرفون الآيات والأحاديث التي ورد فيها إثبات هذه الصفات إلى معان أخرى يقطع كل عاقل سلم قلبه من الشبه التي قامت في قلوب هؤلاء بأن هذه المعاني ليست مرادة لله ولرسولهﷺ.

إذاً فهنا نلاحظ أمرين هامين في هذا المذهب:

أولهما: أن ما أثبتوه من الصفات إنما أثبتوه بدلالة العقل لا متابعة القرآن والسنة.

والآخر: أن المعنى الظاهر التي تدل عليه آيات الصفات وأخبارها لم يفهموا منه إلا ما هو لائق بالمخلوق، فمن هنا شرعوا في نفي المعنى الحق المفهوم من ظواهر الأدلة الشرعية هرباً من التشبيه فيما يزعمون وأتوا بمعان مخترعة من عند أنفسهم وسموا ذلك تأويلا وهو في الحقيقة تحريف، فقالوا في قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥] استولى، وفي قوله: {يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } [ص: ٧٥] ، فقالوا اليد هنا القدرة، وقوله ﷺ: (ينزل ربنا تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الأخير من الليل، فيقول من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه ومن يستغفرني فأغفر له) أول الأشاعرة النزول **فقالوا تنزل رحمته أو ينزل ملك.**

وكذلك في الصفات الأخرى مثل الرحمة والرضا والغضب والكراهية، فإنهم إما يفسرونها بالإرادة أو ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات فيقولون مثلاً:

الرحمة أو الرضا هي إرادة الله للإنعام على عبده أو ثوابه، أو يقولون هي ما يخلقه الله من النعم أو الثواب.

ويقولون الغضب: إرادة الله عقاب عبده، أو يفسرون الغضب بما يخلقه من العقوبة.

الرد عليهم:

١. **الواجب على المسلمين** عموماً إتباع الكتاب والسنة والتحاكم إليهما عند التنازع كما قال تعالى: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [الأعراف:٣] ، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء: ٥٩].

فالكتاب والسنة فيهما البيان الواضح والهدى التام والعلم الصادق فمن تمسك بهما فقد هدي إلى صراط مستقيم.

وهؤلاء لما جعلوا العقل حكماً على الكتاب والسنة، وعقولهم مختلفة صار بينهم من الاختلافات في مسائل الصفات ما هو مشهود معلوم فيما يقبله عقل هذا ويرفضه عقل ذاك، وهكذا لا تجد اثنين من أئمة الأشاعرة متفقين في كل المسائل التي بحثناها، بينما هذا الاختلاف لا نجده عند السلف أهل الحديث فقولهم واحد من أولهم إلى آخرهم، ورحم الله الإمام مالك حين قال منبهاً على وجوب ترك الكلام والجدال وضرورة إتباع الكتاب والسنة:

((أو كلما جاء رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد لجدل هؤلاء)).

٢. **ويرد عليهم بالقاعدة السابقة:** ((القول في الصفات كالقول في الذات))، وبالقاعدة الأخرى: ((القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر)).

ملاحظة: [تذكر القاعدتان وتبين وكيف يكون الرد بهما].

٣. ويقال لهم أيضاً اتفاق شيئين أو أكثر في اسم عام مطلق إنما يكون في الذهن، وهذا لا يقتضي تماثلهما في مسمى ذلك الاسم عند الإضافة ةالتخصيص.

فإذا قيل الله موجود والإنسان موجود لا يلزم من الاتفاق في مسمى الوجود وأن يكون وجود الرب مثل وجود الإنسان فالوجود اسم عام مطلق يكون في الذهن، أما في الخارج فليس هناك وجود مطلق يكون ثابتاً في هذا الشيء المعين وذاك المعين.

ولكن العقل يفهم قدراً مشتركاً بين المسلمين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق.

فإذا قيل علم وسمع ويد واستواء فهذه أسماء مطلقة في الذهن، أما في الخارج فيتقيد مسماها بما تضاف إليه.

فإذا قيل علم الله وسمع الله ويد الله واستواء الله على العرش فهذه صفات لله ﷻ تليق بجلاله وعظمته.

وإذا قيل علم الإنسان وسمعه ويده واستوائه على الفلك فهذه صفات للمخلوق تناسب حاله وافتقاره.

وليس بينهما تشابه كما أن من قال وجه الإنسان، ووجه الحمار أو الخنزير لا يكون مشابهاً لوجهه بوجه الحمار أو الخنزير.

• **الطائفة الثالثة: ((المفوضة)):**

وهذه الطائفة نسمها طائفة تجوزاً، وإلا فهم أفراد ممن ينتسب إلى السنة وأتباع السلف، ومنهم بعض الأشاعرة المتأخرين.

وهؤلاء يرون أن آيات الصفات وأحاديث الصفات لا يعرف معناها، ويرون أن لها تأويلا لا يعلمه إلا الله، ويحتجون بقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران: ٧]، واعتقدوا أن الوقف اللازم بعد قوله: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}.

فظنوا أن التأويل المذكور في الآية هو التأويل الذي اصطلح عليه بعض المتأخرين، وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به.

واعتقدوا أن آيات الصفات وأخبارها من المتشابه الذي له تأويل لا يعلمه إلا الله، استناداً إلى هذه الآية وعلى أن الوقف اللازم بعد قوله: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}. **فرأوا** أن الواجب الإيمان بالألفاظ وعدم التعرض للمعنى، **وتفويض** علمه إلى الله لأن هذا من التأويل الذي لا يعلم أحد سواه.

وظنوا أن هذا هو مذهب السلف ﷺ وأن هذا هو معنى قولهم في آيات الصفات وأخبارها أمروها على ظاهرها ((أمروها كما جاءت بلا كيف)).

وقد أخطئوا مرتين:

أخطئوا حين زعموا أن التأويل المذكور في الآية والذي لا يعلم تأويله إلا الله هو التأويل الذي يعنيه بعض المتأخرين.

وأخطئوا حين ظنوا أن تفويض معاني آيات الصفات وأخبارها هو مذهب السلف.

أما خطأهم الأول، فذلك لأن التأويل يراد به ثلاثة معاني:

الأول: التأويل بمعنى التفسير، فتأويل الكلام هو تفسيره سواء وافق ظاهره أم لم يوافقه وهذا هو معنى التأويل في اصطلاح جمهور المفسرين وغيرهم.

وهذا التأويل يعلمه الراسخون في العلم، وهو موافق لموقف من وقف من السلف على قوله: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ } [آل عمران: ٧]، كما نقل ذلك عن ابن عباس ومجاهد ومحمد بن اسحاق وغيرهم.

الثاني: أن التأويل هي الحقيقة التي يؤول الكلام إليها وإن وافقت ظاهره.

فتأويل ما أخبر الله به في الجنة من الأكل والشرب واللباس والنكاح هو الحقائق الموجود أنفسها لا يتصور من معانيها في الأذهان ويعبر عنه باللسان.

وهذا هو التأويل في لغة القرآن كما قال تعالى عن يوسف أنه قال: { يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} [يوسف: ١٠٠]، وقال تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} [الأعراف: ٥٣]، **وهذا التأويل** هو الذي لا يعلمه إلا الله، **وتأويل الصفات** هو الحقيقة التي انفرد بها الله بعلمها وهو الكيف المجهول.

فمثلاً: الاستواء معلوم للعلم بمعناه فهو يفسر ويترجم بلغة أخرى، وهو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم أما كيفية ذلك الاستواء فهو من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

الثالث: التأويل في اصطلاح المتأخرين وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح ((وهو الظاهر)) إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به.

وبعد ذلك نقول أنهم أخطئوا حين جعلوا التأويل المذكور في الآية هو التأويل بالمعنى الثالث الذي اصطلح عليه أهل الكلام.

ثم أخطئوا حين ظنوا أن آيات الصفات وأخبارها من المتشابه فيكون لها تأويلا لا يعلمه إلا الله.

والصواب أن التأويل في الآية الكريمة: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ } [آل عمران: ٧]، المراد به حقيقة الشيء التي يؤول إليها.

وأن هذا ليس خاصاً في آيات الصفات بل يشمل غيرها، وآيات الصفات من قبيل المحكم لا المتشابه لأن معانيها معروفة لكن الكيفية هي التي تدخل في المتشابه الذي لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى كما ذكرنا من قبل في صفة الاستواء على العرش.

وأما خطؤهم في الثاني:

فحين ظنوا أن مذهب السلف هو هذا أعني تفويض معاني الصفات الواردة في الآيات والأحاديث، وهذا خلاف المنقول عنهم كما ذكرنا مراراً من قبل ومما يدل على ذلك قولهم: ((أمروها كما جاءت بلا كيف))، فقولهم: (أمروها كما جاءت) يعني بحسب معناها المفهوم منها، وقولهم: (بلا كيف) نفي للعلم بكيفية الصفة، وتفويض علم ذلك إلى الله تعالى.

ويلزم على قولهم أن لا يكون النبي ﷺ عالماً بمعاني آيات الصفات ولا أصحابه الكرام فهل يعقل أنه ﷺ وضح لهم القرآن وبينه أتم البيان إلا فيما يخص الله تعالى فيكون تركهم في حيرة وضلال، إذ جاءهم بآيات لا يعلمون معانيها.

ومع هذا لم يقل لهم مرة من المرات في يوم من الأيام أن ظاهر هذه الآيات غير مراد فلا تعتقدوه وإنما فوضوا علمها إلى الله تعالى.

ويلزم أيضا أن يكون الرسول ﷺ قد تكلم هو نفسه ابتداء بأخبار الصفات وحدث بها أصحابه وهو لا يعلم معناها، فهل يقول هذا من عنده مسكة من عقل؟

- **الطائفة الرابعة: (بعض الفلاسفة والباطنية):**

فهؤلاء يقولون أن الأنبياء أخبروا عن الله ((كالصفات الخبرية من الاستواء والنزول وغير ذلك)) وعن اليوم الآخر وعن الجنة والنار بل وعن الملائكة بأمور غير مطابقة للواقع في نفسه لكنهم خاطبوا الناس بما يتخيلون ويتوهمون بأن الله جسم عظيم، وأن الأبدان تعاد، وأن الله نعيماً محسوساً وعقاباً محسوساً وإن كان الأمر ليس كذلك في نفس الأمر، لأن من مصلحة الجمهور أن يخاطبوهم بما يتوهمون به ويتخيلون أن الأمر هكذا، وإن كان هذا كذباً فهو كذب لمصلحة الجمهور.

ومن هؤلاء الفلاسفة: الفارابي وابن سينا وابن رشد الحفيد، وملاحدة الصوفية كابن عربي وابن سبعين وابن الطفيل.

ولا ريب أن هذا الكلام كفر ووصف الله تعالى ولرسوله ﷺ بالكذب على الناس وإخبارهم بما لا حقيقة له.

ملاحظة:

١. يضاف إلى ما في المذكرة ما ألقي في أثناء المحاضرات مما ليس في المذكرة.
٢. يضاف أيضاً من كتاب العقيدة في الله للكتور: عمر الأشقر المباحث التالية:

أ - التعرف إلى الله من خلال النصوص صفحة (١٥٤) إلى (١٨٤)، ويركز بصفة خاصة على صفة اليدين صفحة (١٦٠)، والاستواء على العرش صفحة (١٦٦)، أين الله صفحة (١٦٨)، وصفة الوجه صفحة (١٥٧)، صفة النزول صفحة (١٧٣-١٧٤).

ب - أسماء الله الحسنى صفحة (١٨٥-١٩١) وفوائد العلم بأسماء الله صفحة (١٩٣-١٩٤).

الموقف من آيات الصفات وأخبارها

* **يؤمن أهل السنة والجماعة** : بأن صفات الله تبارك وتعالى الواردة في كتابه الكريم أو في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم حق يجب إثباتها لله تبارك وتعالى وأن معنى كل صفة هو بحسب ما يدل عليه ظاهر اللفظ والسياق وهو المتبادر الى الذهن .

* **ويؤمنون أيضا** : أن المعنى الظاهر المتبادر الى الذهن من آيات الصفات وأخبارها لا يقتضي ولا يفهم منه مشابة صفات الخالق لصفات المخلوق ، بل ما أضيف الى الخالق سبحانه مثل السمع والبصر والوجه واليد والغضب والفرح والإستواء يليق بكماله وعظمته وإذا أضيفت هذه الصفات الى المخلوق فإنها تليق بحاله وضعفه .

* **وقد خالف هذا الفهم طوائف من الناس :**

(١) منهم من فهم أن المعنى الظاهر المتبادر الى الذهن من آيات الصفات وأخبارها يقتضى مشابهة صفات الخالق لصفات المخلوق ، وهذا كفر وعندئذ حاولوا أن يفروا من هذا المأزق فأختلفت مهاربهم

أ- **فذهب الجهمية والمعتزلة** الى نفي الصفات عن الله عز وجل فقالوا ان الله عز وجل لا يوصف بأنه له سمعا ولا بصرا ولا وجها ولا يدا ، ......

ب - **ذهب الاشاعرة** الى أن هناك صفات يجب أن يتصف الله بها وآمنوا بها وهى سبع صفات على أنها صفات تليق بكمال الله ولا تشابه صفات المخلوقين وأما باقي الصفات فحرفوها عن المعنى الظاهر المتبادر الى الذهن الى معانى ليست مراده من النصوص القرآنية والحديثية وهذا ما يسمى بمذهب (**التأويل**) أي تأويل الصفات ، وهو في الحقيقة تحريف .

(٢) وذهب بعض الناس الى أن ظاهر النصوص القرآنية التى تتعلق بالصفات وأخبارها تقتضى المشابهة بين الخالق والمخلوق وقالوا نحن نؤمن بأن صفات الخالق تشبه صفات المخلوق ، وهؤلاء هم (**الممثلة**) .

(٣) وذهب بعض الناس الى أن ظاهر نصوص الصفات فى القرآن والسنة تقتضى التشبيه (تشبيه الخالق بالمخلوق) ورأوا أن التأويل قد ذمه الله في الكتاب في قوله تعالى (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنه وابتغاء تأويله) فرأوا أن الطريق السليم هو في تفويض علم الصفات الى الله عز وجل ، فأمنوا بالألفاظ دون المعاني ، وهؤلاء يقال لهم أهل(**المفوضه**)

(٤) **وذهب بعض الفلاسفة والباطنية** الى ان ما ورد من الصفات الخبرية مثل الإستواء والنزول واليد ،... وكذلك ما جاء عن اليوم الآخر والجنة والنار غير مطابقة للواقع نفسه وإنما خوطب الناس بما يتخيلون ويتوهمون وإن كان الأمر ليس كذلك في الحقيقة

ثالثاً: توحيد الألوهية (توحيد العبادة)

- **معنى الألوهية:**

الألوهية هي العبادة، يقول رؤية بن العجاج:

لله در الغانيات المدّهِ   سبحن واسترجعن من تألهي

فالتأله هو التعبد من أله يأله إلاهه وألوهية تألها، وروي عن ابن عباس ﷺ أنه قرأ: {وَيَذَرَكَ وَإِلاهَتَكَ } [الأعراف: ١٢٧] ، قال: عبادتك.

فالإلهه والألوهية هي العبادة.

معنى إله:

إله على وزن فعال بمعنى مفعول: أي معبود، فالإله هو الذي تألهه القلوب محبةً وتعظيماً وذلاً وخوفاً وتوكلاً.

ومما يؤكد هذا المعنى أن المشركين كانوا يسمون معبوداتهم التي كانوا يعبدونها من الأصنام والأوثان آلهة، كما قال الله تعالى حاكياً عنهم قولهم: { إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا} [الفرقان: ٤٢]، وقال: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } [ص: ٥].

فالإله إذاً يطلق على المعبود مطلقاً سواء كان أهلاً للعبادة مستحقاً لها أم لا.

وبهذا يكون معنى كلمة التوحيد ((لا إله إلا الله)) لا معبود بحق إلا الله فكل معبود غير الله فعبادته باطلة، والله وحده هو المعبود بحق لأنه أهل لعبادة.

- **معنى العبادة:**

المعنى اللغوي: الأصل في معنى العبادة والعبودية الخضوع والذل، يقال طريق معبد: إذا كان مذللاً بكثرة الوطء.

- **العبادة في الشرع:**

العبادة التي أمر الله ﷻ الناس بها تتضمن الخضوع والذل لله ﷻ بغاية المحبة والخوف.

وتطلق ويراد بها: الفعل الذي هو المصدر يقال: عبد الرجل ربه عبادةً وتعبداً، وهي بهذا الإطلاق يراد بها التذلل لله ﷻ بفعل أوامره واجتناب نواهيه عن محبة وخوف.

وتطلق العبادة على المفعول المتعبد به، وبهذا المعنى عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: (هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنية)[١].

فالعبادة إذاً بهذا المعنى تنقسم على القلب واللسان والجوارح.

- **فمن عبادات القلب:**التصديق بالله تعالى ورسوله ﷺ، وبما أخبر الله تعالى ورسوله ﷺ، وحب الله ورسولهﷺ، وخشية الله وإخلاص الدين لله والصبر لحكمه والشكر لنعمه والتوكل عليه والخوف منه.
- **ومن عبادات اللسان:** الذكر وقراءة القرآن والدعاء.
- **ومن عبادات الجوارح:** الصلاة والزكاة والصيام والحج الجهاد.

---

[١] مجموع الفتاوى ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، (١٠/ ١٤٩).

معنى توحيد الألوهية أو توحيد العبادة

أظن بعد أن بيّنا معنى الألوهية والعبادة أصبح سهلاً علينا أن ندرك المقصود بتوحيد الألوهية أو توحيد العبادة.

فتوحيد الألوهية أو توحيد العبادة: هو إفراد الله ﷻ بالألوهية أي العبادة، لأنه وحده المستحق لها.

- **معنى كلمة لا إله إلا الله:**

هذه الكلمة تدل على نفي الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى كائناً من كان وإثبات الإلهية لله وحده كل ما سواه.

فمعنى الكلمة إذاً: لا معبود بحق إلا إله واحد هو الله وحده ﷻ.

((فلا إله)) نفي للألوهية عن كل أحد لأنه لا يستحقها، و ((إلا الله)) إثبات الألوهية لله وحده لأنه المستحق وحده للعبادة والتأله.

فدلت هذه الكلمة العظيمة على أن دين الإسلام لابد فيه من النفي والإثبات، نفي العبادة عما سوى الله تعالى، وإثباتها لله وحده، وهذا هو التوحيد الخالص والدين الخالص، وهذا النفي والإثبات لا يتم تحقيق التوحيد الخالص إلا به فلابد من البراءة من عبادة كل ما سوى الله والإقبال بالقلب والعبادة على الله وحده وذلك هو معنى الكفر بالطاغوت والإيمان بالله: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٥٦].

- **الغاية من خلق الجن والإنس:**

قد أخبر الله سبحانه أن الغاية من خلق الجن والإنس هي أن يعبدوه وحده قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وقد فطر الله عباده على معرفته ومحبته والتأله له وتوحيده، فقال سبحانه: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: ٣٠].

العبادة حق الله على العباد

أمر الله بعبادته وحده، ونهى عن أن يشرك به في العبادة أحداً كائناً من كان، لأن العبادة حق خالص له على عباده، فعن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار يقال له عفير فقال: (يا معاذ هل تدري حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟ قلت الله ورسوله أعلم. قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً. فقلت يا رسول الله: أفلا أبشر به الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا)[1].

فالعبادة حق خالص لله ﷻ لأن العبادة أصلها غاية الخضوع والذل بغاية المحبة، والله ﷻ هو الذي يجب أن تخضع له الرقاب وتذل له القلوب لأنه هو وحده الخالق المالك الذي بيده الموت والحياة والنفع والنصر، والعبد إنما يجب أن يخضع لمن بيده موته وحياته ونفعه وضره قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا} [الفرقان: ١-٣].

فعاب الله على المشركين أن اتخذوا معه آلهة يعبدونها مخلوقة لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً فضلاً عن أن تنفع عابديها أو تضرهم، فإذا كان الله هو الذي بيده الموت والحياة والنفع والضر فهو الذي ينبغي للعبد أن يحبه غاية الحب فالله ﷻ هو الذي خلقه في أحسن تقويم وصوره فأحسن صورته وأسبغ عليه نعمة ظاهرة وباطنة وكرمه وفضله على كثير من خلقته ورزقه من الطيبات وسخر له مافي السماوات والأرض، قال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ} [الجاثية: ١٣] ، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} [لقمان: ٢٠] ، فهذا حب الله لخلقه وإنعامه وإحسانه، ويحب الله تعالى أيضا لأنه سبحانه متصف بصفات الكمال ونعوت الجلال وقد فطرت النفوس البشرية على محبة الصفة الجميلة فكيف بمن له الكمال المطلق والكبرياء والعظمة والجلال.

[1] أخرجه البخاري في صحيحه – ك التوحيد - باب ما جاء في دعاء ﷺأمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ح(٧٣٧٣).

فالله ﷻ هو المحبوب المألوه لذاته وكل ما سواه إنما يحب لأجله ومن لم تحصل له هذه المنزلة من الحب لله تعالى لم يكن قد حقق حقيقة لا إله إلا الله، ولا حقق حقيقة التوحيد والعبودية وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان، بل ومن الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} [البقرة: ١٦٥].

ويجب أن يكون حب الله ورسوله ﷺ فوق كل حب، ومقدم على كل محبوب كما قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} [التوبة: ٢٤] ، وقال ﷺ: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)[١].

ومن تمام حب الله محبة ما يحبه وبغض ما يبغضه، ومن حصل له هذا فقد استكمل الإيمان كما في الحديث: (ومن أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان)[٢].

---

[١] أخرجه مسلم في صحيحه – ك الايمان - باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان -ح(٤٣).

[٢] أخرجه أبو داود في سننه – ك السنة - باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه- ح(٤٦٨١).

متى حدث الشرك

خلق الله آدم عليه السلام أبا البشر على معرفة به سبحانه وفطره على التأله له، يبين ذلك ما أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (لما نفخ في آدم عليه السلام فبلغ الروح رأسه عطس فقال: الحمد لله رب العالمين: فقال الله تبارك وتعالى: يرحمك الله).

فقول آدم عليه السلام: ((الحمد لله رب العالمين)) بعد أن عطس دليل على أن الله فطره على معرفته والتأله له.

وهذه الفطرة التي فطر الله عليها آدم فطر الناس عليها جميعاً كما قال: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} [الروم: ٣٠] .

وقالﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[١]، ولم يقل يسلمانه لأن فطرته تقتضي أن يكون على الإسلام إذا لم تغيره البيئة التي ينشأ فيها والتربية التي يتلقاها من والديه أو من يقوم مقامهما.

ولو سلم من تربية السوء من البيئة فلا تتركه شياطين الجن، بل يصرفونه عن فطرته كما قال ﷺ: (ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا. كل حال نحلته عبداً حلالاً وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأَمَرَتْهُم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطاناً)[٢].

وقد كان الناس أمة واحدة على التوحيد الخالص وإخلاص العبادة والتأله لله وحده سبحانه وتعالى على مقتضى الفطرة التي فطرهم الله عليها ثم طرأ الشرك بعد ذلك، قال الله تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ } [البقرة: ٢١٣] ، وقال تعالى: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس: ١٩].

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه – ك الجنائز - باب ما قيل في أولاد المشركين - ح(١٣٨٥).

[٢] أخرجه مسلم في صحيحه – ك الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها - ح(٢٨٦٥).

يقول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)[١].

وأول قوم وقع فيهم الشرك هم قوم نوح عليه السلام ولهذا أرسله الله إليهم ليحذرهم من الشرك ويبين لهم خطاهم الذي وقعوا فيه ويعوهم إلى إفراد العبادة لله سبحانه ويبين لهم الطريق المستقيم في عبادة الله تعالى، قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [الأعراف: ٥٩].

ولكن ما هو سبب الشرك الذي وقع فيه قوم نوح؟
وهذا ما سيتبين لنا في المبحث القادم إن شاء الله.

[١] أخرجه الحاكم في المستدرك - ح(٤٠٠٩).

الغلو في الصالحين أصل الشرك قديماً وحديثاً

تقدم لنا أن الشرك أول ما وقع كان في قوم نوح ﷺ، أما سببه ما يوضحه ابن عباس رضي الله عنه حين قال: ((صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ((ودّ)) فكانت لكلب في دومة الجندل، وأما ((سواع)) فكانت لهذيل، وأما ((يغوث)) فكانت لمراد ثم لبني غطيف عند سبأ، وأما ((يعوق)) فكانت لهمذان، وأما ((نسر)) فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت)).[١]

الغلو هو: مجاوزة الحد في الشيء، وضابطه تعدي ما أمر الله به، وهو الطغيان الذي نهى الله عنه فقال سبحانه: { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [هود:١١٢].

فهذا الغلو في محبة الصالحين وتعظيمهم هو الذي جر أصحابهم إلى تصوير صورهم ونصبوها في مجالسهم التي كانوا يجلسون عليها، لتكون رؤيتهم للصالحين دافعة لهم للاقتداء بهم أشوق إليهم في العبادة، فلما هلك من يعرفون حقيقة الأمر ونسي العلم بذلك دبَ إبليس إلى من بعدهم ألقى في قلوبهم أن أوائلهم كانوا يرجون شفاعتهم عند الله فآل الأمر إلى أن عبدوا تلك الصور.

وقد حذر الله من الغلو فقال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ} [النساء: ١٧١].

وحذر منه النبي ﷺ مطلقاً فقال: (إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين).

فهذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقاد والأعمال، وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ غداة جمع: (هلم ألقط لي)، فلقطت له حصيات هن حصى الحذف فلما وضعهن في يده قال: (نعم بأمثال هؤلاء فارموا وإياكم والغلو في الدين)[٢].

---

[١] أخرجه البخاري.

[٢] أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

وحذر النبي أمته الغلو في تعظيمه نفسه فقال: (لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)[1] ،والإطراء مجاوزة الحد في المدح.

فقطع بذلك الطريق إلى كل منحرف ضال وأقام الحجة على كل زائغ ملبس داعية إلى الباطل باسم تعظيم النبي ﷺ أو غيره، فأبى المنحرفون إلا مخالفة أمره وارتكاب نهيه فعظموه بما نهاهم عنه، بل وعظموا من هو دونه حتى ظاهوا النصارى في غلوهم وشركهم.

ولا زال الغلو في الصالحين سبباً في حصول الشرك الأكبر من كثير من الناس فتراهم يعكفون على قبورهم وأضرحتهم وينذرون لها النذور ويوقدون عليها السرج ويسألون الأموات أموراً لا يقدر عليها إلا الله ﷻ.

ولا ريب أن هذا من الشرك الأكبر وأعظم مما كان عليه أهل الجاهلية فإن أولئك كانوا إذا ألجأتهم الضرورة لم يلجئوا إلا إلى الله وتركوا آلهتهم كما قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ} [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } [العنكبوت: ٦٥].

ومن هذا الشرك ما أوحاه الشيطان إلى عباد القبور ممن ينتسب إلى الإسلام، فإنه ألقى إليهم أن البناء على القبور والعكوف عليها من محبة الصالحين وتعظيمهم، وأن الدعاء عندها أرجى في الإجابة من الدعاء في المسجد الحرام وسائر المساجد، فاعتادوا ذلك.

ثم نقلهم إلى ما هو أعظم من ذلك وهو الدعاء والأقسام به على الله، وهذا أعظم من الذي قبله ثم استجرهم الشيطان إلى عبادة أصحاب القبور ودعائهم، وسؤال الشفاعة من دون الله، واتخذوا قبورهم أوثاناً يعكف عليها وتعلق عليها القناديل والستور، ويطاف بها وتقبل، وتقصد بالزيارة والحج إليها، ويذبح عندها وينذر لها.

وانتشرت هذه الأفعال حتى صارت ديناً لطوائف كثيرة من الناس من الجهال وممن ينتسب إلى العلم والدين حتى عادوا أهل التوحيد الخالص ورَمَوْهُمْ بالعظائم، ونفُروا الناس عنهم بحجة أنهم لا يحبون النبي ﷺ ولا يحبون الصالحين، ووالوا أهل الشرك وعظومهم.

---

[1] متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب.

ومن الناس من صرح بجواز الاستغاثة بالرسول ﷺ في كل ما يستغاث به الله تعالى، وادعى أنه يعلم الغيب ويقدر على ما يقدر عليه الله، وإن هذا السر أنتقل في الحسن ثم في ذريته إلى أبي الحسن الشاذلي، وقالوا هذا مقام القطب الغوث الفرد الجامع.

اسمع مثلاً لقول البوصيري:

فإن من وجودك الدنيا وضرتها   ومن علمك علم اللوح والقلم

جعل الدنيا كلها والآخرة كلها من جوده، و((من)) هنا للتبعيض أي من بعض جوده جعل علم اللوح المحفوظ والقلم بعض علمه، فأي شيء أبقى لله هذا المسكين من الملك والعلم.

لا ريب أن هذا من تلبيس إبليس، وهو خبير بأن الباطل لا يقبل صرفاً، بل لابد من مزجه بشيء من الحق ليروج على ضعاف العقول وسفهاء الأحلام، فأدخل عليهم الشرك باسم محبة الصالحين.

وقد كان النبي ﷺ أحرص الناس على تجريد التوحيد وإفراد الله ﷻ بالعبودية والتأله، ومن حرصه على هداية أمته إلى التوحيد قطع أسباب الشرك ووسائله من جميع الجهات:

١. فنهى ﷺ عن الغلو مطلقاً كما تقدم.

٢. نهى ﷺ عن الغلو في شخصه في تعظيمه ومجاوزة الحد في أطرائه وغيره ويكون من باب أولى ألا يغلى فيه ويرفع فوق منزلته.

٣. حذر ﷺ من عبادة الله عند قبور الصالحين لأن ذلك ذريعة وسبباً إلى عبادة القبور كما جاء في حديث عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة ومافيها من الصور فقال: (أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله)[١].

فقوله: ((شرار الخلق)) يقتضي تحريم ما ذكر من بناء القباب والمساجد على القبور والصلاة فيها.

---

[١] متفق عليه واللفظ البخاري.

وقد جمع هؤلاء بين فتنتين فتنة القبور، لأنهم افتتنوا بقبور الصالحين وعظموها تعظيماً مبتدعاً فآل بهم الأمر إلى الوقوع في الشرك، و**الفتنة الثانية** التماثيل أي الصور، فإنهم لما غلو في الصالحين وبنوا على قبورهم المساجد صوروا فيها صور الصالحين ليتذكروا أفعالهم ويجتهدوا كاجتهادهم ويعبدوا الله عند قبورهم، ثم آل إلى أن عبدت تلك الصور ومن هي صورته من دون الله.

ولا ريب أن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس بالشرك بخشبة أو بحجر ولهذا أهل الشرك يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون ويعبدونها بقلوبهم عبادة لا تظهر منهم في بيوت الله.

٤. وقد لعن النبي ﷺ اليهود والنصاري لاتخاذهم القبور مساجد ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة على وجهه فإذا اغتم كشفها فقال وهو كذلك: (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً.

فالمساجد هنا المراد بها مزاضع العبادة وإن لم يسموها مساجد فهي عندهم بيع وكنائس فإن الاعتبار بالمعنى لا بالاسم ومثل ذلك القباب والمشاهد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين فإنها هي المساجد الملعون من بناها على قبورهم وإن لم يسمها من بناها مساجد.

وقول عائشة: ((يحذر ما صنعوا)) أي ما قال تحذيراً لأمته أن تصنع ما صنع اليهود والنصارى.

قال القرطبي: ((وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام)).

٥. **ونهى أمته** نهياً خاصاً أن تتخذ القبور مساجد، كما في صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: ((إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبياؤهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك)).

٦. **والصلاة عند القبور** داخل في النهي وإن لم يبن مسجد فلا تجوز الصلاة في المقبرة ولا إلى القبور ولا تنعقد الصلاة لما ورد في الأحاديث من اللعن على فعل ذلك.

ولما أخرج مسلم في صحيحه عن أبي مرثد الغنوي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تجلسوا إلى القبور ولا تصلوا إليها).

ولحديث أبي سعيد الخدري ﵁ مرفوعاً: (الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام).

وفي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب ﵁ رأى أنس بن مالك ﵁ يصلي عند قبر فقال: (القبر، القبر).

وهذا يدل على أن المستقر عند الصحابة ما نهاهم عنه نبيهم ﷺ من الصلاة عند القبور.

٧. واعتبر النبي ﷺ الذين يتخذون القبور مساجد من شرار الناس فقال ﷺ: (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد).

٨. وقد نهى النبي ﷺ أن يوضع على القبر الجص أو يبنى عليه ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله ﵁ أن النبي ﷺ نهى أن يجصص القبر وأن يبني عليه وأن يقعد عليه.

ففي تجصيص القبور مباهات واستعمال لزينة الدنيا في أول منازل الآخرة، وتشبه بمن كان يعبد القبور ويعظمها، وعن جابر ﵁ أن رسول الله ﷺ نهى عن تجصيص القبور وأن يكتب عليها.

وقد وقع في هذه المخالفات طوائف من الناس وللأسف أنها بدأت تنتشر بين أهل الكويت تجصيص القبور بالرخام وغيره والكتابة عليها، فيجب على ن علم بحرمة ذلك تنبيه أهله وذويه وغيرهم إن استطاع إلى حرمة ذلك ولنهي النبي ﷺ عنه.

٩. ومع كل هذا التحذير البالغ والوعيد الشديد فقد أخبر النبي ﷺ أن طوائف من أمته ستعبد الأوثان كما في حديث مسلم عن ثوبان ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان)، ففي هذا الحديث الرد على من ينكر وقوع الشرك وعبادة الأوثان في هذه الأمة.

ويؤكد وقوع الشرك ما أخرج الشيخان في حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى تضطرب أَلْيات نساء دوس حول ذي الخلصة) وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون الجاهلية.

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى)، وقيل أن القبر المنسوب لابن عباس في الطائف إنه قبر اللات.

الحكمة من إرسال الرسل عليهم السلام

تقدم لنا أن الله ﷻ فطر عباده على التوحيد الخالص وأنهم بقوا على ذلك عشرة قرون ثم حصل فيهم الشرك، فكان من رحمة الله تعالى بالناس أن أرسل إليهم الرسل وأنزل الكتب لدعوة الناس إلى عبادة الله وحده، ونبذ كل معبود سواه.

فأول ما حصل الشرك في قوم نوح عليه السلام، فأرسل الله إليهم نوحاً عليه السلام، يدعوهم إلى التوحيد الخالص، إلى إفراد الله بالعبادة، قال تعالى: { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [الأعراف: ٥٩].

وكذلك جاء الرسل من بعده يدعون أقوامهم إلى عبادة الله وحده وينهون عن عبادة ما سواه، قال الله تعالى عن هود عليه السلام: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [الأعراف: ٦٥]، وقال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } [الأعراف: ٧٣].

وهذه هي وظيفة الرسل التي بعثهم الله، بها الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥].

وأخبر أن هذه دعوة الرسل جميعاً بقوله سبحانه: {لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل: ٣٦]، والطاغوت مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد.

وقد فسره عمر بن الخطاب بالشيطان، **وفسره جابر** رضي الله عنه بأنه كهان كانت تتنزل عليهم الشياطين.

وقال مالك رحمة الله: ((كل ما عبد من دون الله)) أي وهو راضي، لأن الملائكة والأنبياء والصالحين لا يرضون أن يعبدوا.

وقد حده ابن القيم فقال: ((الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع)).

وختم الله رسله بمحمد ﷺ الذي شملت دعوته الجن والإنس كافة في مشارق الأرض ومغاربها، كما قال تعالى: { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: ١٥٨] ، وبين دعوته فقال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥]، وأمره سبحانه يقوله: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ } [فصلت: ٦]، وقال تعالى: { وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ } [الزمر: ٦٥، ٦٦].

وأول ما دعا النبي ﷺ قومه دعاهم إلى عبادة الله وحده، يدل على ذلك أن هرقل قال لأبي سفيان وهو حينئذ كافر: ماذا يأمركم؟ فأجاب أبو سفيان قلت: يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم[1].

ولقد دعا النبي إلى التوحيد الخالص ونبذ عبادة الأصنام والأوثان وبين ذلك أوضح بيان واستنكر قومه ذلك منه فقالوا: { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } [ص: ٥]، وقال تعالى: { إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ} [الصافات: ٣٥، ٣٦].

والتوحيد هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد سواه، وقد جاء تقرير توحيد الألوهية في آيات كثيرة من القرآن الكريم:

١. قرأ مثلاً في الفاتحة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥]، فالمعنى لا نعبد إلا أنت ولا نستعين إلا بك وهذا إفراد له بالعبادة والاستعانة وهي منها.
٢. وأول أمر في القرآن الكريم قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ٢١].
٣. وقوله تعالى: { فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} [الزمر: ٢].
٤. وقوله تعالى: { قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الزمر: ٦٤ - ٦٦].

[1] أخرجه البخاري

ولقد أوضح النبي ﷺ هذا التوحيد وبينه غاية البيان ونبه عليه، وجاهد في تقريره ودعوة الناس إليه، فمن ذلك:

١. قوله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله)[١]، فذكر أنه أمر بقتال الناس لغاية أن يقروا بالألوهية لله وحده ولنبيه بالرسالة ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.

وبَيَّنَ فضل التوحيد الذي تدل عليه هذه الكلمة العظيمة ((لا إله إلا الله)) في أحاديث كثيرة، وأنها سبب لدخول الجنة والنجاة من النار، منها ما أخرجه الشيخان عن أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهم نائم وعليه ثوب أبيض، ثم أتيته فإذا هو نائم ثم أتيته وقد استيقظ فجلست إليه فقال: (ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة).

وحديث عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله حرم الله عليه النار)[٢].

ومن المعلوم أن المراد من قال هذه الكلمة مصدقاً بها قابلاً لها عاملاً بمقتضاها بأن يخلص عبادته لله سبحانه وحده ويجتنب الشرك كله بالكفر بكل ما يعبد من دون الله، كما يدل على ذلك قول النبي ﷺ: (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله)[٣].

وحذر النبي ﷺ من الشرك الذي يضاد التوحيد أو ينفي كماله الواجب فإن الضد لا يعرف إلا بضده كما قيل: (وبضدها تتبين الأشياء)، وهذا ما نفصله في المبحث القادم إن شاء الله.

---

[١] أخرجه مسلم

[٢] مسلم

[٣] أخرجه مسلم عن طارق الاشجعي

<u>الشرك وخطره وأنواعه</u>

عرفنا أن توحيد الألوهية ((العبادة)) هو إخلاص العبادة لله وحده سبحانه، فيكون الشرك في الألوهية هو صرف شيء من العبادة لغير الله تعالى، أو عبادة مع الله غيره.

والشرك أعظم ذنب عصي به الله تعالى وأشده خطراً على العبد، فقد رتب الله ﷻ عليه من عقوبات الدنيا والآخرة مالم يرتبه على ذنب سواه من إباحة دم أهله وسبي نسائهم وأولادهم، وعدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه، قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ١١٦] .

وأخبر سبحانه أن الجنة محرمة على أهل الشرك وأن مصيرهم إلى النار قال تعالى: { إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ } [المائدة: ٧٢]، وأخرج البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من مات وهو يدعوا لله نداً دخل النار).

وأخرج مسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار).

- **أنواع الشرك:**

الشرك الذي نهى الله عنه النبي ﷺ يقسمه العلماء إلى نوعين: أكبر وأصغر:

أولا: الشرك الأكبر: وهو أن يجعل العابد لله نداً يعبده كما يعبد الله، فمن صرف شيئاً من العبادة لغير الله ﷻ فقد وقع في الشرك الأكبر، وبعبارة أخرى: أن يعبد مع الله غيره.

أمثلة للعبادات التي يقع فيها الشرك الأكبر:

١. المحبة:

نقصد بالمحبة التي يقع فيها الشرك الأكبر المحبة المستلزمة للذل والخضوع للمحبوب والتعظيم له وإثارة على غيره، فمن أحب غير الله مثل هذه المحبة فقد أشرك بالله ذلك الغير مع الله ﷻ في هذه العبادة قال الله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } [البقرة: ١٦٥].

وقد أخبر الله تعالى أن أهل النار يقولون يوم القيامة لآلهتهم: {تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، ومعلوم أن المشركين كانوا يسوون آلهتهم برب العالمين بالمحبة والتعظيم كما في الآية السابقة وما يتبع ذلك من التقرب إليهم بسائر العبادات، فمحبة الله ﷻ يجب أن تكون فوق كل محبة قال الله تعالى: { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٢٤].

وفي الصحيحين من حديث أنس ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحي المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[١].

---

[١] أخرجه مسلم في صحيحه – ك الايمان - باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان -ح(٤٣).

٢. الخوف: ونقصد بالخوف الذي يقع فيه الشرك (خوف السر):

هو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء من مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلك بقدرته ومشيئته، سواء ادعى أن ذلك كرامة للمخوف بالشفاعة أو على سبيل الاستقلال، فالخوف على هذا النحو من عبودية القلب، فلا يصلح إلا لله تعالى، فمن خاف سيداً أو ولياً كما يزعم أهل التصوف ميتاً كان أو حياً وظن أن له القدرة على إلحاق الضرر به بغير أسباب مباشرة من الحي كان ذلك شركاً أكبر، وخوفه هذا من الخوف لا يصلح أن يكون إلا من الله تعالى لأنه هو الذي يملك النفع والضرر، وهو الذي له القدرة التامة والعلم المحيط والمشيئة النافذة، قال الله تعالى: { إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [التوبة: ١٨] ، فقوله:{ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ }.

قال ابن عطية: ((يريد خشية التعظيم والعبادة))، وقد أمر الله بخشية وحده فقال: { وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [البقرة: ٤٠] ، وهذا الخوف كان المشركون يعتقدونه في آلهتهم وأصنامهم ولهذا كانوا يخوفون بها أولياء الرحمن.

كما خوفوا إبراهيم عليه السلام فقال لهم كما حكى الله عنه: { وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [الأنعام: ٨٠، ٨١].

وقال تعالى عن قوم هود عليه السلام: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: ٥٤ - ٥٦].

وهذا الخوف هو الواقع اليوم من عباد القبور فإنهم يخافون أصحابها كما يخافون الله تعالى بل أشد ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله أعطاك ما شئت من الإيمان كاذباً أو صادقاً فإن طلبت اليمين بصاحب القبر لم يقدم على اليمين إن كان كاذباً وما ذاك إلا لأنه يخاف من المدفون أكثر من خيفته من الله تعالى.

وقوله تعالى: { إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [آل عمران: ١٧٥].

وهذا الخوف محرم لأن بسببه يترك الإنسان ما يجب عليه من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بغير عذر ولا لخوف من الناس.

قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢] ، وقال تعالى: { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ } [الزمر: ٣٦] ، وقال تعالى: {وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ} [الزمر: ٣٦، ٣٧] ، وقال تعالى: { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} [الزمر: ٣٨].

فقد ذكر الله جل وعلا في هذه الآية أن الكفار عبدة الأوثان كانوا يخوفون النبي ﷺ بالأوثان التي يعبدونها من دون الله بأنها ستضره وتخبله ونحو ذلك.

ولا ريب أن الخوف من الأصنام والأوثان وسائر المعبودات التي كانت تعبد من دون الله من أبشع أنواع الكفر والإشراك بالله تعالى.

٣. **الدعاء:**

الدعاء من أجل العبادات وأعظمها وينبغي الإشارة إلى أن الدعاء نوعان:

أ- **دعاء عبادة:** وهو عبادة الله تعالى بأنواع العبادات من الصلاة والصيام والذبح والنذر والحج وغيرها خوفاً وطمعاً يرجوا رحمته ويخاف عذابه، قال الله تعالى: { وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [الجن: ١٨] أي لا تعبدوا مع الله أحداً.

ب- **دعاء مسألة:** وهو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، والدعاء بهذا المعنى من العبادات التي يجب صرفها لله وحده، فيجب دعاؤه وحده سبحانه لأنه هو الذي بيده النفع والضر ولهذا أنكر الله على من عبد من دونه مالا يملك ضراً ولا نفعاً فقال سبحانه: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف:٥، ٦] ،وقال تعالى: { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [المائدة: ٧٦].

ونهى سبحانه عن دعاء ما لا يملك نفاعاً ولا ضراً فقال شأنه: { وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ} [يونس: ١٠٦] ، وأخبر في هذه الآية أيضاً أن من دعا غير الله فإنه من الظالمين لأنه لا ظلم أعظم من الشرك كما قال تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣].

فالشرك في الدعاء أعظم أنواع الشرك وأكثرها وقوعاً وهو أكبر شرك المشركين الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ فإنهم يدعون الأنبياء والصالحين والملائكة، ويتقربون إليهم ليشفعوا لهم عند الله، وكانوا يفعلون ذلك في حال الرخاء أما في حال الشدة فإنهم يلجئون إلى الله وحده كما قال الله تعالى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } [العنكبوت: ٦٥].

أما عباد القبور اليوم فإنهم إذا ألجأتهم الضرورة ومستهم البأساء لجئوا إلى القبور يلوذون بأصحبها ويسألونهم كشف الضر، وإن كانوا على بعد منها توجهوا بقلوبهم وألسنتهم إلى أصحابها فتلهج ألسنتهم بأسماء أسيادهم ومن يظنون فيهم الصلاح يسألونهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات فأي شرك أعظم هذا.

فالدعاء بنوعه ((دعاء العبادة ودعاء المسألة)) يجب أن يتوجه العبد به إلى الله وحده فإن صرف شيئاً منه لغير الله تعالى كأن صلى أو حج أو نذر لغير الله فهو مشرك شركاً أكبر ومن سأل ولياً أو نبياً أو ملكاً أو أي مخلوق أخر جلب مفع أو دفع ضر بما لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك بالله شركاً أعظم ولو قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، فمن أتى بالشهادتين وعبد غير الله فما أتى بهما حقيقة وإن تلفظ لهما قال الله تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [المؤمنون: ١١٧].

٤. الاستغاثة:

وهي طلب الغوث وهو إزالة الشدة، فهي لا تكون إلا من المكروب، والاستغاثة بإنسان في أمر يقدر عليه جائزة، ومنها استغاثة الرجل الذي من بني إسرائيل بموسى ليخلصه من عدوه، قال تعالى: {فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ} [القصص: ١٥].

أما الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله فهذا من الشرك الأكبر، فمن استغاث بميت في إزالة (كرب، خوف، مرض) فلا ريب أن هذا من الشرك الأكبر لأنه اعتقد أن الميت يمكن أن يغيثه بما يملك من قوة خفية غيبية، وهذا من خصائص الرب ﷻ، فهو وحده الذي يملك رفع الضر وجلب المنفعة.

ومن استغاث بحي لكنه بعيد عنه لا يمكن أن يباشر الأسباب العادية في إغاثته فهو أيضاً قد وقع في الشرك الأكبر كمن استغاث بالميت، فإن الاستغاثة في هذه الحالة في أمر لا يقدر عليه إلا الله قال تعالى: {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ } [يونس: ١٠٦].

<u>ملاحظة:</u> فالاستغاثة أخص من الدعاء، فهي كما سبق لا تكون إلا من مكروب، بينما الدعاء يكون من المكروب ومن غيره.

٥. الاستعاذة:

والاستعاذة هي الالتجاء والاعتصام والتحرز،وحقيقتها هرب الإنسان من شيء يخافه إلى من يعصمه منه ويؤمنه مما يخافه.

فالاستعاذة بالله عبادة، وقد أمر الله ﷻ بالاستعاذة به سبحانه كما قال: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [فصلت: ٣٦]، وقال تعالى: { فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [غافر: ٥٦]، وقال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ } [الفلق: ١، ٢].

وعن خوله بنت الحكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من نزل منزلا فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرحل من منزله)[1].

فالاستعاذة فيما لا يقدر عليه إلا الله عبادة، فإن توجه بها الإنسان إلى ربه تعالى فقد استعاذ بمن يملك النفع والضر، ويقدر على إجابته، فهو عابد لله موحد له.

ومن استعاذ بغير الله ((مثل الجن أو أصحاب القبور، أو حي لكن كان غائباً عنه)) فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى فقد جعل ذلك الغير شريكاً لله في عبادته، ونازع الرب في إلهيته.

فقد ذم الله الكافرين على استعاذتهم بالجن، فقال تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} [الجن: ٦] ، قالوا في تفسير هذه الآية: ((أن أهل الجاهلية كانوا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه)) يريد الجن وكبيرهم، فالآية تحكي قول مؤمني الجن أنهم لما تبين لهم دين الرسول ﷺ وآمنوا به وذكروا أشياء من الشرك كانوا يعتقدونها في الجاهلية من جملتها الاستعاذة بغير الله.

وقد أجمع العلماء على أن الاستعاذة بغير الله لا تجوز، ولهذا نهوا عن الرقى التي لا يعرف معناها خشية أن يكون فيها شيء من ذلك.

وينبغي أن يعلم أن الاستعاذة أيضاً من أنواع الدعاء.

---

[1] رواه مسلم

٦. النذر:

النذر عبادة من العبادات، لأن الله ﷻ قد أثنى على الموفين بالنذر قال تعالى: { يُوفُونَ بِالنَّذْرِ} [الإنسان: ٧].

والله تعالى لا يمدح إلا على فعل واجب أو مستحب، أو ترك محرم، وذلك هو العبادة، فمن نذر طاعته لله وجب عليه الوفاء بها، ونذره عبادة وقربه لله تعالى، ومن نذر لغير الله تقرباً إليه ليدفع عنه الضر، أو يجلب له النفع، أو ليشفع له عند الله، فقد أشرك في عبادة الله.

ومن هذا الشرك النذور التي يفعلها عبّاد القبور والأولياء فيما يزعمون، تقرباً إليهم ليقضوا حوائجهم، وليشفعوا لهم، والنذر قد يكون بالذبح، أو بتقديم الأموال والسرج والأدهان لِتُنَوَّر بها المشاهدة التي على القبور، رجاء بركة أصحابها، مع تعظيم البقعة والمشهد، ليحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض، وسلامة مال، وقدوم غائب، ونحو ذلك، ولا ريب أن هذه الأفعال من الشرك الأكبر، لما فيه من تعلق القلب بغير الله ﷻ في تحصيل المنافع ودفع المضار.

٧. الذبح:

الذبح عبادة يتقرب به العبد إلى الله تعالى، كالأضحية، والهدى، والعقيقة، قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

والنسك: هو الذبح لله تعالى ابتغاء وجهه، وقال تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ } [الكوثر: ٢].

ففي الآية الأولى: أمر الله ﷻ نبيه أن يخبر المشركين أن صلاته ونسكه ((ذبحه)) وكل ما يأتيه في حياته، وما يموت عليه خالص لله تعالى، بخلاف المشركين الذين يعبدون مع الله غيره من الأصنام والأوثان ويذبحون لها.

وفي الآية الثانية: أمره بإخلاص صلاته وذبيحته لله رب العالمين، وهاتان العبادتان دالتان على التواضع والافتقار، وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينه القلب إلى الله تعالى وإلى عدته، فمن صرف شيئاً من ذبائحه لغير الله ﷻ فهو عابد لذلك الذي ذبح له، وقلبه معلق به فيكون قد عبد غير الله، أو عبد مع الله غيره، وهذا الشرك الأكبر.

وهذا شأن أهل القبور فإنهم ينذرون الذبائح لأصحاب القبور تعظيماً لهم، وإرضاءً لهم واستعانةً بهم في حصول مآربهم، وسواء الذبح كان من الجهلة الرعاع ابتداءً، أو كان بعد طلب سدنه القبور، أو غيرهم ممن يدعون الصلاح، ويدخل في الذبح لغير الله الذبائح التي يتقدم بها بعض الاتباع من المتصوفة لمن يتبعونهم، ويزعمون فيهم الولاية والصلاح، يطلبون بذلك بركتهم، ويرجون شفاعتهم في دفع المكارة أو جلب المصالح ومن هذا ما يطلبه السحرة والكهنة والعرافون ممن يلجئون إليهم في قضاء جوائحهم وتفريج كرباتهم.

ومبالغة في تحقيق خضوع المكروبين يطلب العرافون والسحرة أحياناً ذبائح معينة في أوقات معينة وبصفات مخصوصة، فهذا كله من الشرك الأكبر المخرج من الملة، وهذه الذبائح حرام، ولا يجوز أكلها.

وقد حرم الله تعالى من الذبائح ما ذبح باسم غير اسم الله تعالى، كمن يذكر اسم المسيح أو الشيخ الفلاني، قال تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} [الأنعام: ١٢١]، ولا ريب أن ما ذبح تقرباً لغير الله حرمته أعظم وأكبر.

قال تعالى: { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ } [البقرة: ١٧٣] ، ويدخل في الذبائح المحرمة ما تذبحه العامة للجن عند شراء سيارة، أو بناء بيت، أو خوفاً من أن تصيبهم الجن بمكروه.

وهذا الشرك لِما فيه من التوجه لغير الله بالذبح على وجه القربة، وقد لعن النبي ﷺ من ذبح لغير الله، كما في حديث علي رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: (لعن الله من ذبح لغير الله)[١].

---

[١] رواه مسلم ح١٩٧٨

٨. **طلب البركة من غير الله تعالى**: كالتبرك بالشجر والقبور والأحجار.

فقد كان من شأن أهل الجاهلية التبرك بآلهة والأشجار، يعلقون فيها أسلحتهم طلباً للنصر والبركة من جهتها، ويعلقون بها الخيوط والخرق، طلباً للبركة ودفعاً للضرر.

يدل على ذلك ما أخرجه الترمذي عن أبي واقد الليثي، أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مرَّ بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط، يعلقونعليها أسلحتهم، قالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال النبي ﷺ: (سبحان الله هذا كما قال قوم موسى {اجعل لنا إلها كما لهم آلهة} والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم)[١].

فهؤلاء الذين طلبوا أن يجعل لهم النبي ﷺ شجرة يعلقون بها أسلحتهم ظنوا أن هذا أمر محبوب عند الله وجائز، فقصدوا التقرب إليه بذلك، فطلبوا ذلك من الرسول ﷺ، وهؤلاء القوم كانوا حديثي عهد بالكفر كما في بعض الروايات.

وقد اعتبر النبي ﷺ هذا الطلب مثل طلب قوم موسى حين قالوا: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، ولهذا نزه الله عنه فقال: (سبحان الله) وفي رواية: (الله أكبر) والمراد تعظيم الله، وتنزيهه عن الشرك والتقرب به إليه.

فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة والعكوف عندها طلباً للبركة اتخاذ إله مع الله، منع أنهم لا يعبدونها، ولا يسألونها، فما الظن بما يحدث من عبّاد القبور، من دعاء الأموات، والاستغاثة بهم، والذبح والنذر لهم، والطواف بقبورهم، وتقبيل أعتابها وجدرانها، والتمسح بها، والعكوف عندها، وجعل السدنة والحجاب لها.

فعلم أن طلب البركة من الشجر ، أو الأموات، أو الأحجار، أو العكوف عندها عبادة لغير الله والمطلوب منه البركة، أو العكوف عنده صار إلهاً لمن طلب منه البركة، فهذا وجه كون هذه الأفعال من الشرك.

وما يجب التنبيه إليه هنا أن العبرة بالحقائق والمعاني لا بالأسماء، إذا لم يلتفت النبي ﷺ إلى تسميتهم للشجرة التي طلبوها (ذات انواط) بل اعتبره مثل قول قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.

---

[١] صحيح رواه أحمد وأبو داود والترمذي واللفظ له.

فهذه العبادات وغيرها إن توجه بها الإنسان إلى الله تعالى فهو عابد لله موحد له، وإن صرف شيئاً منها لغير الله تعالى فقد أشرك ذلك الغير مع الله تعالى في العبادة والألوهية ونقض فعله قوله ((لا إله إلا الله))، قال تعالى: { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا } [النساء: ٣٦] ، فأمر سبحانه بعبادته ونهى عن الشرك مطلقاً، وهذا هو معنى ((لا إله إلا الله)): أي لا معبود بحق إلا الله، فهي تنفي العبادة لغير الله وتثبتها لله وحده.

ثانياً: الشرك الأصغر:

وهذه أفعال وأقوال منافية لكمال التوحيد الواجب، قد تقع من المسلم أو تجري على لسانه، وقد حذر منها النبي ﷺ أشد التحذير، حماية لجانب التوحيد، وقطعاً للسبل المؤدية إلى الشرك الأكبر، وتسمية هذا الشرك بالأصغر ليس تقليلاً من شأنه، وإنما هو أصغر بالنسبة لقسم الأكبر المخرج من الملة، ومن هذه الأمور:

١. **الاستسقاء بالنجوم** بالمعنى الأول، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

٢. **الرياء والسمعة:**

والرياء: المراد به إظهار العبادة بقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها.

والسمعة: العمل لأجل إسماعهم، كرفع الصوت بالقراءة أو الذكر، ويدخل فيه أن يعمل العمل لله سراً ثم يحدث به الناس بعد ذلك.

فالرياء يتعلق بحاسة البصر، والسمعة بحاسة السمع.

فالعمل المتقبل هو ما كان خالصاً لله سبحانه وصواباً، بأن يكون موافق لهدي النبي ﷺ كما قال تعالى: { فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } [الكهف: ١١٠]، فالعمل المتقبل إذاً لابد فيه من هذين الركنين:

الركن الأول: أن يكون خالصاً لله تعالى، وذلك بأن يخلص من الشرك الأكبر والأصغر.

والمراد بالأصغر هنا الرياء والسمعة.

ويسمى الرياء أيضاً الشرك الخفي، لأن صاحبه يظهر أن عمله لله، ويخفي في قلبه أنه لغيره، وإنما تزين بإظهاره أنه لله.

الركن الثاني: أن يكون صواباً، وهو أن يكون أصل العمل مشروعاً، وأداؤه موافقاً للسنة.

ويسمى الرياء شركاً لأن المرائي لما كان قاصداً بعمله الله تعالى وغيره من المخلوقين طلباً للثناء والمدح والمنزلة كان قد أشرك مع الله ذلك الغير، ولهذا حذر النبي ﷺ من العمل على هذا الوجه:

أ- ففي حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) [1]، وفي رواية لابن ماجه: (فأنا منه بريء وهو للذي أشرك).

وفي هذا نص على بطلان عمل المرائي الذي يعمل العمل لله ولغيره، وأنه ليس له ثواب على هذا العمل، فالله ﷻ هو الغني على الإطلاق، والشركاء بل وجميع الخلق فقراء إليه بكل اعتبار.

ب- وعن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: يا رسول لله وما الشرك الأصغر؟ قال ﷺ: الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء)[2].

ت- وفي حديث أبي أمامة الباهلي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله؟ فقال رسول الله ﷺ: (لا شيء له)، فأدعاها ثلاث مرات ويقول له رسول الله ﷺ: (لا شيء له)، ثم قال: (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه)[3].

---

[1] رواه مسلم ح٢٩٨٥.

[2] أخرجه أحمد بإسناد حسن.

[3] أخرجه أبو داود والساني.

٣. الحلف بغير الله تعالى:

المقصود بالحلف أو اليمين هو تأكيد المحلوف عليه، بذكر من يعظمه الحالف والمحلوف له وقد يكون مع إرادة التأكيد اعتقاد أن المحلوف به يقدر أن ينتقم من الحالف لو كان كاذباً، ولاريب أن مثل هذا الاعتقاد في غير الله تعالى كفر.

وقد أجمع العلماء على جواز الحلف بالله أو صفاته، وأجمعوا على المنع من الحلف بغيره، قال ابن عبد البر: لا يجوز الحلف بغير الله بالإجماع، وقد نهى النبي ﷺ عن الحلف بغير الله تعالى، ويدل على ذلك:

١. حديث ابن عمر رضي الله عنه أدرك عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسير في ركب يحلف بأبيه فقال: (ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)[1].

٢. وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: (من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله)، وكانت قريش تحلف بآبائها فقال: (لا تحلفوا بآبائكم).

وقد اعتبر النبي ﷺ الحلف بغير الله من الشرك، لأن فيه تعظيماً للمحلوق، ويدل على ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنه: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)[2].

والشرك الحاصل بالحلف بغير الله قد يكون أكبر، وقد يكون أصغر، بحسب حال قائله:

١) فإن كان يجري على اللسان بقصد توثيق الخبر وتأكيده بذكر المحلوف به لكون الحالف يعظمه ويحبه، فهذا من الشرك الأصغر وهو محرم.

٢) وإن كان يصاحب ذلك اعتقاد الحالف أن المحلوف به له القدرة على إيذائه له لو حلف كاذباً، فهذا من الأكبر.

ولهذا نجد كثيراً من عباد القبور إذا طلبت من أحدهم اليمين بالله أعطاك ما شئت من الإيمان صادقاً أو كاذباً، فإذا طلبت منه اليمين بالشيخ أو بتربته أو بمقامه أو نحو ذلك لم يقدم على اليمين به إن كان كاذباً، لأن المحلوف به عندهم أخوف وأجل وأعظم من الله.

---

[1] أخرجه البخاري ومسلم.

[2] أخرجه الترمذي.

ولخطورة الحلف بغير الله قال ابن مسعود ﷺ : لإن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً.

وذلك لأن الحلف بالله توحيد، والكذب معصية والحلف بغير الله شرك، وإن قدر الصدق في الحلف بغير الله، ولا ريب أن حسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق، وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشرك، وفي هذا دلالة على أن الحلف بغير الله صدقاً أعظم من اليمين الغموس، وهذا يعني أن الشرك الأصغر أعظم من الكبائر.

٣) من الشرك الخفي: قول الرجل لصاحبه: ماشاء الله وشئت، أو ما شاء الله وشاء فلان:

يدل على ذلك ما أخرج أحمد والنسائي وغيرهما عن قتيلة أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: (وإنكم تشركون وتقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا ورب الكعبة وأن يقولو ما شاء الله ثم شئت)[1].

ففي الحديث نص على أن هذا اللفظ (ما شاء الله وشئت) من الشرك، لأن النبي ﷺ قد أقر اليهودي على تسمية هذا اللفظ تقديراً أو شركاً، ونهى النبي ﷺ عن ذلك وأرشد إلى استعمال اللفظ البعيد من الشرك.

وأشد من ذلك وأولى بالنهي عنه قول: ((أنا متوكل على الله وعليك))، ((ومالي إلا الله وأنت)) ((وهذا من الله ومنك))، ((وهذا من بركات الله وبركاتك)).

٤) ومنه قول القائل: لولا كلب فلان لأتانا اللصوص، أو لولا البط لسرقنا البارحة.

فالواجب نسبة عدم السرقة لله تعالى، لأنه هو الذي يحفظ عباده ويكلؤهم بالليل والنهار كما قال تعالى: { قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ} [الأنبياء: ٤٢].

وإن كان يمتنع اللصوص خشية نباح الكلب، وصياح البط، أو أن أهل الدار يستيقظون على النباح، أو الصياح، فيهرب اللص دون أن يتمكن من السرقة، فكل هذا بقدر الله ومشيئته، ولو شاء سبحانه لما نبح الكلب ولما صاح البط ولتمكن اللصوص من السرقة.

---

[1] اللفظ للنسائي

٤.تعليق التمائم:

التمائم: جمع تميمة، وهي كل ما علق من أي شيء كان لدفع الأذى أو العين، فقد تكون التميمة خرزات أو غيرها.

وقد اعتبر النبي ﷺ تعليق التميمة من الشرك كما في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (من علق تميمة فقد أشرك)[1].

فتعليق التمائم من الشرك ومن التشبه بما كان عليه أهل الجاهلية، وقد يكون الشرك أكبر إذا قام بقلب صاحب التميمة اعتقاد النفع فيها، وأنها تدفع العين والأذى مع دون الله عز وجل، وما أشبه هذا الاعتقاد.

أما إن اعتقد أنها سبب للسلامة من العين أو الجن ونحو ذلك، فهذا من الشرك الأصغر، لأن الله سبحانه لم يجعلها سبباً بل نهى عنها وحذر منها.

وبين أنها شرك على لسان رسول الله ﷺ وما ذاك إلا لِما يقوم بقلب صاحبها من الالتفات إليها والتعلق بها، والواجب الالتفات إلى الله وحده والتعلق به وحده في جلب النفع ودفع الضر.

<u>حكم تعليق التميمة التي من القرآن، وأسمائه سبحانه وصفاته:</u>

إذا كانت التميمة ليس فيها إلا القرآن أو أدعية واستعاذة بأسماء الله وصفاته، فقد اختلف العلماء في الجواز:

١. قالت طائفة: يجوز لأن التميمة المنهي عن تعليقها ما يكون فيها شرك وإما أن تكون خرزات أو نظام مما لا أثر له في جلب النفع ودفع الضر.

٢. وقالت طائفة: لا يجوز وبه قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة وجماعة من التابعين وهو الصواب لوجوه ثلاثة:

الأول: أن النهي عن تعليق التمائم عام.

الثاني: أن في المنع من تعليق القرآن لذريعة تعليق ما ليس كذلك.

الثالث: أن في تعليق القرآن امتهان له بحمل المعلق له معه حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك.

---

[1] أخرجه أحمد والحاكم.

وينبغي أن نشير هنا إلى بعض الأعمال التي نهى عنها الشرع لِما فيها من منافاة للتوحيد وقد تصل بصاحبها إلى الشرك الأكبر، والكفر المخرج من الملة، فمما نهى الشرع عنه في هذا الباب:

١) إتيان العرافين والكهان.

٢) السحر.

٣) التنجيم.

وسنبين وجه الخطر في هذه الأعمال في المبحث التالي إن شاء الله تعالى.

١) **إتيان العرافين والكهان:**

والعراف والمنجم والرمال وغيرهما من الأسماء تطلق على من يدعي معرفة علم الشيء من المغيبات الماضية والمستقبلية، والكاهن في الأصل كان يطلق على الذي يأخذ عن مسترقي السمع من الجن وقد كان الجن في الجاهلية تسترق السمع من الملائكة في السماء الدنيا، ثم تبقي ما تسمعه منهم إلى أوليائهم من الإنس وهم الكهان، فيخبرون الناس بما سمعوا ويخلطون معه كذباً، وقد كان الكهان قبل البعثة النبوية كثير، أما بعدها فقد قالوا كثيراً، لأن الله تعالى حرس السماء بالشهب، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ} [الحجر: ١٦ - ١٨]، قال تعالى: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا} [الجن: ٨، ٩]، قال تعالى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ } [الصافات: ٦ - ١٠].

حذر النبي ﷺ إتيان العرافين والكهان وسؤالهم وذلك لأنهم يَدَّعون علم الغيب، والله ﷻ هو وحده الذي يعلم الغيب، فمن يأتيهم يكون على خطر عظيم، فإذا صدقهم بما يقولون كان خطره أعظم، وهو إلى الكفر أقرب إن لم يكن كافراً، ويدل على ذلك:

١) ما أخرج مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ قال: (من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً وليلة)، ففي الحديث وعيد شديد وتهديد بالغ لمن أتى العراف وسأله سواء صدقه أو شك في صدقه، فقد رتب النبي ﷺ على ذلك عمد قبول صلاته أربعين يوماً وليلة.

وأي خير يطلبه الإنسان من شيء يمنع قبول صلاته فهذا يدل على المنع من إتيان الكهان وسؤالهم، وقد دل على المنع من إتيان الكهان الحديث التالي:

٢) عن معاوية بن الحكم السلمي قلت: يا رسول الله إن منا رجالاً يأتون الكهان. قال: (فلا تأتهم)[١] ،فإذا كان هذه حال السائل وهو أنه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً فكيف حال المسؤول. نسأل الله العافية والسلامة....

---

[١] رواه مسلم

أما من صدَّق العراف أو الكاهن بما يقول ويخبره عن الأمور المغيبات من الحوادث الماضية والمستقبلية فقد كفر كفراً مخرجاً من الملة، لأنه اعتقد صدقه في علم الغيب، الذي هو من خصائص الله رب العالمين.

يدل على ذلك ما أخرجه أحمد والحاكم عن أبي هريرة والحسن عن النبي ﷺ قال: (من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ).

ومن هنا يجب على المسلم والمسلمة الابتعاد عن العرافين والكهنة وكل من يتعاطى معرفة وعدم إتيانهم، وتحذير الناس منهم، ولا يغتر بكثرة من يأتيهم.

الأمور المغيبة وكشف الأحوال والأسرار فيما يزعمون ويخبرون عن سبب المرض، أو عن الغائب، أو ما يضمره الزوج للزوجة، أو الزوجة للزوج، وقد يأخذون شيئاً من ملابس الشخص المراد الكشف عن حاله كـ ((الغترة)) وغيرها عندهم، فكل هذا وأشباهه من الأعمال المحرمة، لا يجوز طلبها ولا سؤال العرافين ومن يُدْعوْنَ بالأولياء ممن يتعاطون هذه الأمور ويفعلون هذه الأفعال، فالعبرة بالحقائق لا بالأسماء فكل من يدعي معرفة علم شيء من المغيبات فهو إما داخل في اسم الكاهن والعراف، وإما مشارك له في المعنى فيأخذ حكمه.

٢) السحر:

عزائم ورقى وعقد يؤثر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجته، ويُأخذ أحد الزوجين عن صاحبه.

وذلك أن الساحر إذا أراد عمل السحر عقد الخيوط عقداً، فإذا تكيفت نفسه والشر الذي يريده بالمسحور، ويستعين على ذلك بالشياطين نفث على هذه العقد، فيتساعد هو والروح الشياطنية على أذى المسحور، ولهذا أمر الله ﷻ بالتعوذ من شرهم في قوله تعالى: {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} [الفلق: ٤].

وعمل السحر وتعلمه كفر لقوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٠٢، ١٠٣].

فالساحر يتعامل مع الشياطين وهم لا يساعدونه إلا إذا صرف لهم شيئاً من العبادات، كالذبح لهم أو يهين القرآن، فيدوسه، أو ينجسه، أو نحو ذلك.

حد الساحر:

القتل لِما في صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال: أتاني كتاب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر.

وعن بجالة بن عبدة قال: أتانا كتاب عمر قبل موته بسنة: (اقتلوا كل ساحر) [١]، ولِما صح عن حفصه أم المؤمنين أنها أمرت بقتل جارية قد سحرتها.

---

[١] أخرجه عبد الرزاق وأحمد في مسنده

٣) التنجيم:

نقصد بالتنجيم العلم المتعلق بالنجوم وهو علمان:

١) **علم التسيير:** وهو علم يعرف به سير النجوم والكواكب ومدارها ومنازلها وأبعادها وأحجامها، وهذا علم الفلك ولا بأس بتعلمه، ويمكن الاستفادة منه في معرفة القبلة والاتجاهات والطرق.

٢) **علم التأثير:** ويعرف بالعلم الروحاني، ويزعم أهل هذا العلم أن الكواكب والنجوم لها تأثير في الحوادث الأرضية أنه بمعرفة هذه الكواكب وحركتها في مجاريها واجتماعها وافتراقها يمكن ما يجري في الأرض من الأمراض والحروب والضيق والسعة والحياة والموت، والسعادة والشقاوة بين الزوجين، إذا عقد قرانها عند اقتران كذا من النجوم والكواكب بكذا.

ويعملون جدولا بالحوادث التي ستحدث في العالم كله من حوادث عامة وخاصة، وهذا كله دجل وكذب وافتراء، وهذا كفر مخرج من الملة، لِما يتضمن من دعوى العلم بالغيب الذي استأثر الله بعلمه، ومن اعتقاد أن الكواكب والنجوم قادرة فاعلة مختارة.

ولا زال بعض الناس من يتعاطى هذا العلم، وهو بقية من قول الصابئه المنجمين الذين بعث إليهم إبراهيم عليه السلام، وقد كانوا يعظمون الشمس والقمر والكواكب، ويتذللون لها ويبنون لكل كوكب هيكلاً، أي موضوع للعبادة، ويزعمون أن للكواكب روحانيين تنزل عليهم وتخاطبهم، وتقضي حاجاتهم، وتلك الروحانيات هي الشياطين تتنزل عليهم، قال تعالى: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢].

ومن هذا العلم ما ينشر في الجرائد بما يسمى ((حديث الأبراج)) أو ((طالع حظك اليوم)) فهذا الكفر، واعتقاد صحته كفر يخرج به الإنسان من الملة.

<u>التنجيم من السحر</u>

وقد اعتبر النبي ﷺ التنجيم من السحر كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد).

وقوله: (اقتبس) أي تعلم، فقد أخبر النبي ﷺ أن علم النجوم من السحر، وأن من يتعاطى هذا العلم كلما ازداد فيه توغلاً ازداد توغلاً في السحر، فيزداد بذلك إثمه وعقابه وقد قال الله عز وجل: {وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [طه: ٦٩].

الاستسقاء بالنجوم من أمر الجاهلية:

المراد بالستسقاء بالنجوم: نسبة نزول المطر ومجيئه إلى سقوط النجم في المغرب، وطلوع رقيبه في المشرق، وذلك بحسب منازل القمر، وتسمى هذه المنازل ((أنواء))، فكانت العرب تزعم أنه مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون المطر، وينسبونه إليها فيقولون مطر بنوء، والنوء: هو الطلوع بنوء كذا، أي الرقيب.

وقد حذر النبي ﷺ من ذلك، واعتبره من أفعال الجاهلية، كما جاء في حديث أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة)، فهذه الأمور من أمور الجاهلية، وهذا الوصف يقتضي أنها معاصي.

والاستسقاء بالنجوم على نوعين:

أحدهما: أن يعتقد أن المنزل للمطر هو الله تعالى، ومع هذا ينسب إنزال المطر إلى النجم، لأن الله أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور ذلك النجم، وهذا محرم وهو من الشرك الخفي، وهو الذي أراده النبي ﷺ وأخبر من أمر الجاهلية، وهو الذي كان يزعمه المشركون، ولم يزل موجوداً في الأمة إلى هذا اليوم.

ففي منع النبي ﷺ من هذا القول حمايةً لجناب التوحيد وسداً لذرائع الشرك، ولو بالعبادات الموهمة، التي لا يقصدها الإنسان.

الثاني: أن يعتقد أن المنزل للمطر هو النجم، وهذا كفر ظاهر، لِما فيه من نسبة الخلق والإيجاد لغير الله تعالى.

الإيمان بالقدر

إن موضوع القدر أحد أعوص أبواب العلم ، التي خاض فيها الباحثون على مَرِّ العصور وتوالي الدهور ، ولقد تباينت آراؤهم وتعددت اتجاهاتهم ، فنشأت فرق تتبنى الواحدة منها مذهباً في هذا الباب فتنصره وتدافع عنه وتقرر مسائله ، وتراه الحق الواضح ، وما عداه الضلال الفاضح.

ولا ريب أن أسعد الناس حظاً بالتوفيق والهدى من تمسك بالكتاب الكريم والسنة المطهرة واستنار بنوريهما فقدمهما بين يديه ، فكان تابعاً لهم بفهم صحيح ، مقتدياً في ذلك بأئمة الهدى ومصابيح الدجى من الصحابة أهل العلم والإيمان ومن تبعهم بإحسان من التابعين ، ومن جاء بعدهم من أئمة المسلمين المشهود لهم بالاستقامة في الدين والرسوخ في العلم ، مثل الإمام مالك وسفيان بن عيينة ، والإمام أحمد بن حنبل ، ونحن في هذا المبحث سنقفو آثارهم إن شاء الله تعالى ونتأسى بمنهجهم في فهم نصوص الكتاب والسنة المتعلقة بموضوع القدر ، ونسأل الله أن يعصمنا من الخطأ والزلل.

المراد بالإيمان بالقدر

المقصود بالإيمان بالقدر هو أن يؤمن العبد بأن الله تعالى قد علم مقادير الأشياء « المخلوقات » ، وأزمان وجودها وعلم العباد وما هم عاملون وجميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ، وكتب ذلك قبل إيجاد الخلائق وتكوينها ، ثم إنه سبحانه يوجد الخلائق وفق ما سبق به علمه وتقديره ، ومضت به كتابته ، ويؤمن العبد أيضاً بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطؤه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان:

الإيمان بالقدر بالمفهوم السابق أحد أركان الإيمان التي لا يصح الإيمان إلا بها جميعاً.

فمن كذّب بالقدر فليس بمؤمن ، ولا ينفعه عمله حتى يؤمن بالقدر ، ولم يكن بعد النبي ﷺ اختلاف بين الصحابة ﷺ في هذا الجانب ، بل كانوا على الحق المبين ، والصراط المستقيم ، وكيف يكون بينهم نزاع في هذا الركن العظيم والنبي ﷺ بين أظهرهم يربيهم ويعلمهم ، نعم قد نشأ بينهم شيء من الخلاف في القدر ، فقطعه النبي ﷺ في حينه ، فلم يطرأ بعده أي خلاف بينهم في هذا الجانب.

وقد ظهر الخلاف بالقدر في أواخر عهد الصحابة ، فأنكروه وحذروا منه أشد التحذير ، وبثوا ما عندهم من العلم في هذا الباب ونشروه بين الناس ، لطمس هذه البدعة.

ومما يحسن التنبيه إليه أن أول من نفى القدر رجل من أهل العراق يقال له: « سوسن » ، وكان نصرانياً ، فأسلم ثم تنصر ، فأخذه عنه معبد الجهني مقالته.

ومما يدل على أن القدر ركن من أركان الإيمان:

ما أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن بريده عن يحيى بن معمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن حاجين أو معتمرين ، فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ، فوفق لنا عبدالله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبي ، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي ، فقلت : أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم ، وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أُنفٌ ، قال: فإذا لقيت أولئك فاخبرهم أني بريء

منهم ، وأنهم برآء مني ، والذي يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحُد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ، ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يعرفه منا أحد حتى إذا جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ، وقال: يا محمد ، أخبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ: (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت) ، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه . (قال: فأخبرني عن الإيمان ؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال: صدقت .... الحديث).

١ - قوله: « وأنهم يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أُنُفٌ » يعني: أن أولئك النفر ينكرون علم الله السابق بالأشياء قبل وجودها ، ولم يقدرها قبل وقوعها ، وعندهم أن الأمر أُنُفٌ أي مستأنف ، وأنكروا كون الله تعالى عالماً بشيء من أعمال العباد قبل وقوعها منهم.

فصارت بدعتهم مركبة من قضيتين:

أحدها : إنكار علم الله وتقديره السابق للأشياء قبل وجودها.

والأخرى: الزعم بأن الإنسان هو الذي يوجِد فعل نفسه من غير مشيئة الله له أو علمه بها ، بل بمشيئة الإنسان نفسه وقدرته وحده.

٢- وفي الحديث رد عليهم ، حيث جعل النبي ﷺ الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان ، فمن لم يؤمن بالقدر فليس بمؤمن.

ومما يدل من القرآن الكريم على إثبات التقديم السابق للأشياء:

١ - قوله تعالى: ﴿ سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى .. ﴾(١) ، فالمعنى: قدر للخلائق أقداراً وهداها إليها.

---

(١) الأعلى (١-٣)

٢- وقوله تعالى: ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾(١) ، وقد أخرج مسلم في صحيحه ، عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر ، فنزلت: ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾(٢) ، فالمعنى: أن كل شيء خلقناه بمقدار ، قدرناه وقضيناه ، أي من قبل.

تنبيه: القدر بالمعنى السابق يطلق عليه أحياناً « القضاء » ، وبعض العلماء يفرق بين مدلوليهما في هذا الباب.

القدر في اللغة: القدر ، مصدر: تقول قَدَرْت الشيء ، بتخفيف الدال وفتحها قَدَراً وقَدْراً إذا أحطت بمقداره ، ويطلق القدر على التقدير السابق ، وعلى الشيء المقدر.

والقدر في الاصطلاح: تقدم تعريفه ، وبيان المقصود به.

والقضاء: يأتي بمعانٍ مرجعها إلى انقضاء الشيء وتمامه ، وكل ما أُحْكِمَ عمله ، أو أُتم ، أو أُدِّي أو أُوجب ، أو عُلم ، أو نُفذ ، أو أُمضي ، فقد قُضي.

فمثلاً: قوله تعالى: ﴿ فقضاهن سبع سماوات في يومين ﴾(٣) ، أي أتم خلقهن في يومين.

---

(١) القمر (٤٩)

(٢) القمر (٤٨-٤٩)

(٣) فصلت (١٢)

أركان الإيمان بالقدر أربعة:

الإيمان بالقدر يقوم على أربعة أركان ، إذا آمن بها العبد جميعاً صار إيمانه بالقدر إيماناً صحيحاً كاملاً ، ومن شك أو اختل إيمانه بواحدة فقد اختل إيمانه بالقدر.

وهذه الأركان هي:

١- الإيمان بعلم الله الشامل بالأشياء « المخلوقات » قبل إيجادها.

٢- الإيمان بأن الله كتب في اللوح المحفوظ كل ما هو كائن.

٣- الإيمان بمشيئة الله النافذة ، وقدرته التامة ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

٤- خَلْقُ الله تبارك وتعالى وإيجاده للموجودات وفق ما علم وكتب في اللوح المحفوظ.

وسنتناول هذه الأركان بشيء من التفصيل.

الركن الأول: الإيمان بعلم الله الشامل بالأشياء قبل إيجادها.

من تمام الإيمان بالقدر أن يؤمن العبد بأن الله ﷻ قد علم بما هو كائن قبل كونه ، وأنه سبحانه يعلم ما كان ، وما سيكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وأنه سبحانه علم العباد ، وعلم آجالهم وأرزاقهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم وأعمالهم وشقاوتهم وسعادتهم ، ومن منهم من أهل الجنة ، ومن منهم من أهل النار ، وغير ذلك من شئونهم لا يخفى عليه منهم شيء ﷻ علم ذلك قبل أن يخلقهم.

والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تقرر هذا الأصل وتوضحه أكمل إيضاح ، بحيث يكون من عقيدة المسلم الإيمان التام بأن الله بكل شيء عليم ، وأن علمه قد أحاط بكل شيء ، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ هو الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ﴾(١) ، وقوله تعالى: ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾(٢) ، وقوله تعالى: ﴿ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾(٣).

ومما نص عليه القرآن وقرره علم الله بما لم يكن لو كان كيف يكون ، ويدل على هذا:

١- قوله تعالى: ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾(٤).

---

(١) الحشر (٢٢)

(٢) البقرة (٢٩)

(٣) الطلاق (١٢)

(٤) الأنعام (٢٧-٢٨)

العقل يثبت أن العلم صفة من صفات الخالق:

ذكرنا الأدلة من القرآن على اتصاف الله بالعلم ، وأنه علمه سبحانه قد أحاط بكل شيء وقد تقدم لنا في مبحث الأسماء والصفات أن صفة العلم صفة عقلية بمعنى أن الإنسان بعقله يمكن أن يدرك ضرورة اتصاف الله بالعلم ، وذلك لأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الخالق بها ، فالفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم ، ولأنه يستحيل إيجاد الأشياء مع الجهل بها ، فإيجاد الأشياء يستلزم إرادته سبحانه لها قبل خلقها ، والإرادة لا تتعلق بالمراد إلا بعد العلم به ، فثبت يقيناً أن كل هذه الموجودات « المخلوقات» قد علمها الله سبحانه قبل وجودها وعلم هيئاتها ، وما هي عليه من نظام.

ويدخل في هذا الإنسان وأفعاله وأقواله وحياته ومماته ، وقد أشار الله إلى دلالة الخلق والإيجاد على العلم بقوله تعالى: ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾(١).

وقد علم الله ﷻ ما هو كائن قبل وجود المخلوقات ، فعلم الأشياء كلها وعلم المقادير وهيئاتها وكيفياتها ، بما في ذلك الناس وصفاتهم وأعمالهم التي سيعملونها ، علم كل ذلك وقدره قبل خلق السموات والأرض ، وكتبه في اللوح المحفوظ وسيأتي ذكر الأدلة على ذلك عند الكلام على الركن الثاني.

---

(١) الملك (١٤)

الركن الثاني: الإيمان بأن الله كتب باللوح المحفوظ كل ما هو كائن:

يجب على العبد أن يؤمن بأن الله كتب الخلائق ومقاديرها قبل خلقها وإيجادها ، يدل على ذلك:

١- قوله ﷻ: ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾(١) **فأخبر سبحانه** أنه يعلم ما في السماء والأرض ، وأكد أن ذلك المعلوم مثبت في كتاب.

٢- قوله ﷻ: ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾(٢) ، وقوله ﷻ: ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾(٣).

وقد بين النبي ﷺ متى كتب الله مقادير الخلائق ، وذلك فيما يرويه عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة . قال: وكان عرشه على الماء).

وفي رواية للترمذي: (قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة)(٤).

وعن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه قال: يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أول ما خلق الله تبارك وتعالى القلم ثم قال : أكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة) يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار(٥).

---

(١) الحج (٧٠)

(٢) يس (١٢)

(٣) التوبة (٥١)

(٤) الترمذي ٤/٤٥٨

(٥) أخرجه أحمد وابن أبي عاصم

الركن الثالث: الإيمان بمشيئة الله الشاملة وقدرته النافذة:

والإيمان بمشيئة الله تعالى وقدرته النافذة يعني أن يؤمن العبد بأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لا يكون.

فكل ما في هذا الوجود من سماوات وأرض وما بينهما من جماد وحيوان واعيان وأفعال فهو كائن وموجود لأن الله ﷻ شاء أن يكون ويوجد ، وأوجده بقدرته النافذة ، التي لا يعجزها شيء وفق تقديره السابق ، فيدخل هذا أفعال الإنسان من إيمان وكفر وطاعة ومعاصي ، فكل ما يقع من العبد فهو بمشيئة الله تعالى ، ولو أن الله لم يشأ هذا الفعل منه لما حصل ووقع.

وللعباد مشيئة لكن مشيئتهم تبعاً لمشيئة الله تعالى وقال تعالى: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾(١)

وأفعال العباد التي تحصل منهم تقع بمشيئة الله تعالى ، قال سبحانه: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾(٢).

فالآية تفيد أن الذين جاءوا من بعد الأنبياء اقتتلوا وأن قتالهم واقع بمشيئة الله سبحانه ، ولولا أن الله شاءه لما وقع.

وأخبر سبحانه أن شرك المشركين واقع بمشيئته سبحانه ، قال تعالى: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾(٣) ، وقال تعالى: ﴿إن الله يفعل ما يشاء﴾(٤) ، وذلك لتمام علمه وقدرته ، وقال تعالى: ﴿يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾(٥).

لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء.
يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا
ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير
فلو شاء لهداكم أجمعين.
ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير
قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات والأرض والله على كل شيء قدير.

---

(١) الإنسان (٣٠)
(٢) البقرة (٢٥٣)
(٣) الأنعام (١٠٧)
(٤) الحج (١٨)
(٥) الروم (٥٤)

فنبه الله في هذه الآية على أن الخلق يتعلق بمشيئة الله وعلمه وقدرته ، فالآيات السابقات تدل على أن الشيء الواقع الحاصل سواء كان من الأعيان أو الأفعال فهو واقع بمشيئة الله سبحانه ، وهذا معنى قول « ما شاء الله كان ».

وقد أخبر في آيات أخرى أن ما لم يقع ولم يحصل فهو لعدم مشيئته:

١- قال الله تعالى: ﴿ أفرءيتم الماء الذي تشربون ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ﴾(١).

فالماء الذي يترل من المزن ليس أجاجاً لأن الله لم يشأ أن يكون كذلك ، ولو شاء أن يكون أجاجاً لجعله كذلك ، فَمَرَدُّ الأمر إلى مشيئته سبحانه ، هو لم يشأ أن يكون أجاجاً.

٢- وقال تعالى: ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾(٢).

فالإيمان لم يحصل من كل في الأرض جميعاً ، لأن الله لم يشأ ذلك منهم جميعاً ، فدل ذلك على أن إيمان من آمن حاصل بمشيئته سبحانه ، وأن الكافرين لم يحصل منهم إيمان لأن الله لم يشأ الإيمان منهم.

٣- مثل ما سبق قوله سبحانه: ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾(٣).

---

(١) الواقعة (٦٨-٧٠)

(٢) يونس (٩٩)

(٣) الأنعام (٣٥)

الركن الرابع: الإيمان بأن الله يخلق ما يشاء:

ويتم تحقيق هذا الركن بأن يؤمن العبد بأن الله خالق كل شيء ، وأنه سبحانه يوجد المخلوقات وفق علمه السابق ، وما جرى به القلم في اللوح المحفوظ ، فالله هو الخالق وما عداه من الأعيان والحركات والسكنات فمخلوق.

ويدخل في هذا العباد وأفعالهم وحركاهم وسكناهم:

١- قال تعالى: ﴿ الله خالق كل شيء ﴾(١).

فهذا اللفظ عام لا يخرج منه شيء من العالم أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته.

٢- وقال تبارك وتعالى: ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ﴾(٢).

٣- وقال سبحانه: ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾(٣).

٤- وقال جل وعلا: ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فسأل به خبيراً ﴾(٤)

فهذه الآيات الكريمة تدل على أن الله سبحانه خالق كل شيء.

- ولله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير

(١) الزمر (٦٢)

(٢) الأنعام (١٠٢)

(٣) الفرقان (٢)

(٤) الفرقان (٥٨-٥٩)

أفعال العباد مقدرة مخلوقة:

علمنا من النصوص السابقة أن الله ﷻ قد علم مقادير الخلائق وكتبها ، وأنه سبحانه يخلقها إذا شاء في أوقاتها التي قدرها لها ، وعلى صفاتها وهيئاتها المقدرة السابقة ، ويدخل في تلك النصوص العامة العباد وأعمالهم التي يكتسبونها ، فالله ﷻ قد علم أنه سيخلق آدم وذريته وأنه يجعلهم خلائف في الأرض ، وعلم ما هم فاعلون ، وقدر ذلك وكتبه في اللوح المحفوظ ، وخلقهم كما شاء وهم سيعملون ما يعملون بمشيئتهم وإرادتهم ولكن تبعاً لمشيئة الله سبحانه لا تخرج مشيئتهم عن مشيئة الله.

فالله علم أهل الجنة ويَسَّر لهم العمل الذي يكون سبباً في دخولها ، وذلك برحمته وفضله وعلم أهل النار ويَسَّرَ لهم العمل الذي يكون سبباً في دخولهم فيها ، وذلك بعدله وحكمته ، فالله يهدي من يشاء رحمة منه وفضلاً ويُضِلُّ من يشاء حكمة منه وعدلاً.

أولا: النصوص الدالة على أن أعمال العباد قد علمها الله وقدرها قبل خلقهم:

سبق أن ذكرنا نصوص الكتاب والسنة التي تدل على سبق علم الله وكتابته لمقادير الخلائق كلها قبل خلقها ، والتي يدخل في عمومها أفعال العباد وأعمالهم ، ونسوق هنا أدلة أخرى أَصْرَح في الدلالة على أن أعمال العباد قد علمها الله وقدرها قبل وجودهم ، فمن هذه الأدلة:

١ - الأحاديث التي وَرَدَ فيها أن الله يرسل ملكاً للجنين في رحم أمه فيكتب رزقه وأجله وشقاءه وسعادته ، من هذه الأحاديث ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه ، وأجله وعمله ، وشقيٌ أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها).

فالحديث نصٌّ صريح في أن أعمال الإنسان قد علمها الله ﷻ وكتبها قبل أن يولد ، وكذلك رزقه وتحديد أجله ، وكونه شقي أو سعيد.

٢-والأحاديث التي بين النبيﷺ فيها أن الله علم أهل الجنة وعلم منازلهم وعلم أهل النار وعلم منازلهم وكتب ذلك وجفت به الأقلام ، والناس صائرون إلى ما سبق في علم الله ومشيئته أهم سيعملونه ، ومن هذه الأحاديث ما أخرجه البخاري ومسلم عن عليرضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأتاني رسول اللهﷺ فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ، ثم قال: (ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة) ، قال: فقال رجل: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال« أي الرجل »: من كان من أهل السعادة فيصير إلى أهل عمل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة . فقال « أي النبيﷺ »: (أعملوا فكل ميسر أما أهل السعادة فَيُيَسَّرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فَيُيَسَّرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾(١)).

٣- منها الأحاديث التي صرح فيها النبي ﷺ أن أعمال الناس قد جرت بها المقادير وجفت بها الأقلام قبل خلقهم ، وهم ميسرون إلى ما سبق في علم الله ومضت به المقادير وتمت كتابته في اللوح المحفوظ ، ومن هذه الأحاديث:

أ - ما أخرج مسلم في صحيحه عن جابررضي الله عنه قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم قال: يا رسول الله بَيِّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيم العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما نستقبل ؟ قال: (لا ، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير) ، قال : ففيم العمل ؟ فقال: (اعملوا فكل ميسر).

ب- وأخرج مسلم في صحيحه عن طاووس أنه قال: أدركت ناساً من أصحاب النبيﷺ يقولون كل شيء بقدر ، قال: وسمعت عبدالله بن عمر يقول: قال رسول اللهﷺ: (كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز) ، ومعنى الحديث أن العاجز قد علم الله عجزه وقدره وكتبه والكيس قد علم كيسه وقدره أيضاً.

---

(١) الليل (٥-١٠)

فالحديث نصٌ صريح في أن أعمال الإنسان قد علمها الله ﷻ وكتبها قبل أن يولد ، وكذلك رزقه وتحديد أجله ، وكونه شقي أو سعيد.

٢-والأحاديث التي بين النبيﷺ فيها أن الله علم أهل الجنة وعلم منازلهم وعلم أهل النار وعلم منازلهم وكتب ذلك وجفت به الأقلام ، والناس صائرون إلى ما سبق في علم الله ومشيئته أنهم سيعملونه ، ومن هذه الأحاديث ما أخرجه البخاري ومسلم عن عليؓ قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأتاني رسول اللهﷺ فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ، ثم قال: (ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة) ، قال: فقال رجل: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال« أي الرجل »: من كان من أهل السعادة فيصير إلى أهل عمل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة . فقال « أي النبيﷺ »: (أعملوا فكل ميسر أما أهل السعادة فَيُيَسَّرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فَيُيَسَّرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾[(١)]).

٣- منها الأحاديث التي صرح فيها النبي ﷺ أن أعمال الناس قد جرت بها المقادير وجفت بها الأقلام قبل خلقهم ، وهم ميسرون إلى ما سبق في علم الله ومضت به المقادير وتمت كتابته في اللوح المحفوظ ، ومن هذه الأحاديث:

أ – ما أخرج مسلم في صحيحه عن جابرؓ قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم قال: يا رسول الله بَيِّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيما العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما نستقبل ؟ قال: (لا ، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير) ، قال : ففيم العمل ؟ فقال: (اعملوا فكل ميسر).

ب- وأخرج مسلم في صحيحه عن طاووس أنه قال: أدركت ناساً من أصحاب النبيﷺ يقولون كل شيء بقدر ، قال: وسمعت عبدالله بن عمر يقول: قال رسول اللهﷺ: (كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز) ، ومعنى الحديث أن العاجز قد علم الله عجزه وقدره وكتبه والكيس قد علم كيسه وقدره أيضاً.

---

(١) الليل (٥-١٠)

ثانياً: أفعال العباد هي خلق الله تعالى ((مخلوقة له)) وهي كسب العباد:

قد علمنا من قبل أن الله تعالى له القدرة التامة والمشيئة النافذة ، وقد أخبر جل وعلا أنه المتفرد بالخلق والإيجاد ، وأنه سبحانه خالق كل شيء ، فالخلق من خصائصه التي لا يشاركه فيها أحد.

فالسموات والنجوم والكواكب والأرض وما فيها من أنواع الجمادات والحيوان والمياه كل ذلك الله وحده الذي تفرد بخلقه وإيجاده ، ولو شاء الله أن لا يوجد شيء من ذلك لما وجد.

ويدخل في هذا العبد وأفعاله فالله ﷻ هو الذي خلق العبد ، وهو سبحانه خالق أفعاله ويدل على ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿ والله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾(١) ، فالعبد شيء وأفعاله أشياء ، فالعبد مخلوق بنص هذه الآية ، كذلك أفعاله ، والله هو الخالق ، فأفعال العبد داخلة تحت قدرة الله ومشيئته وخلقه ، والعبد هو الفاعل المكتسب لأفعاله إيمانه أو كفره طاعاته أو معاصيه ، وسائر حركاته.

٢- قوله تعالى: ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾(٢) ، وهذا مثل الآية السابقة في دلالتها على أن كل شيء موجود فالله خالقه ، والعموم المستفاد من لفظه ((كل)) يشمل العبد وأفعاله.

٣- قال الله ﷻ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ﴾(٣) ، فـ ((ما تعملون)) أي: الذي تعملون ، فأنكر إبراهيم عليه السلام على قومه أنهم يعبدون الأصنام التي ينحتونها بأنفسهم ويتركون الله الذي خلقهم وخلق آلهتهم التي يعملونها بأيديهم.

والأصنام إنما صارت أصناماً بعد أن حل مادتها عمل عاملوها وصنعتهم ، فخلق الله للآلهة والأصنام التي عملها عابدوها يتضمن خلق مادتها وخلق أعمال العابدين وصنعتهم التي صارت بها تلك المادة صورة وهيئة معينة هي الأصنام ، فصار في الآية دليل واضح على دخول أعمال العباد في خلق الله وتكوينه ، وأنه سبحانه هو الخالق لأفعال العباد ،

(١) الزمر (٦٢)
(٢) الفرقان (٢)
(٣) الصافات (٩٥-٩٦)

وهم المكتسبون لها ، فأفعال العباد تضاف إلى العباد عملاً وكسباً وتضاف إلى الله خلقاً وإيجاداً ، ولا تناف بين الإضافتين.

فأعمال العباد وحركاتهم واعتقاداتهم وإيمانهم وكفرهم وطاعاتهم ومعاصيهم أفعالهم حقيقة ، وهم الذين فعلوها بإرادتهم واختيارهم وقدرتهم ، وهي مفعولة مخلوقة لله ﷻ حقيقة ، والذي قام بالرب ﷻ علمه بها وقدرته ومشيئته وخلقه لها وتكوينه ، والذي قام بالعباد هو فعلهم وكسبهم وحركاتهم وسكناتهم ، فلا منافاة بين نسبتها لله خلقاً ومشيئة ونسبتها للعباد فعلا وكسباً بقدرتهم ومشيئتهم ، ولكن قدرتهم ومشيئتهم تابعة لقدرة الله ومشيئته سبحانه ، كما قال تعالى: ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾(١) ، فأثبت الله للعبادة مشيئة للاستقامة ، وأخبر أن مشيئتهم تابعة لمشيئته سبحانه ، فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، والله ﷻ هو الذي خلق العباد وأمرهم بالقدرة والإرادة والمشيئة والعلم ، وهو الذي يمكنهم من أفعالهم إن شاء ، أو يحول بينهم وبينها إن شاء ، فمشيئتهم لأفعالهم تبعاً لمشيئة الله سبحانه ، لا يفعلون شيئاً على وجه الاستقلال عن مشيئة الله ﷻ.

---

(١) التكوير (٢٧-٢٩)

القدر السابق بالشقاوة أو السعادة لا يقتضي ترك العمل

تقدم من قبل ذكر الأحاديث النبوية المصرحة بأن الله قد علم أهل الجنة وعلم مساكنهم فيها ، وعلم أهل النار ومساكنهم فيها ، مثل حديث علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة) قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتبنا وندع العمل ؟ قال: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فَيُيَسَّر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فَيُيَسَّر لعمل أهل الشقاوة) ثم قرأ:﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾(١).

وحديث عمران بن حصين ﷺ قال: قيل يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال: (نعم) ، قيل : ففيم يعمل العاملون ؟ قال: (كل ميسر لما خلق له) (٢).

فهذه الأحاديث وأمثالها تدل على أن الله ﷻ قد علم أهل الجنة وعلم مساكنهم فيها ، وعلم أهل النار ومساكنهم فيها ، وأخبر أن هذا المقدر له أسباب يحصل بها وهي الأعمال وأمرهم بالعمل ، فحصل من ذلك أن النبي ﷺ أخبرهم بالقدر السابق ، وأنه يجري على الخليقة بالأسباب ، فقدر النتائج وقدر أسبابها الموصلة إليها ، والعبد ينال ما قدر له بالأسباب التي أُقدر عليها ومكنه منها فإذا أتى بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبق في أم الكتاب ، وكلما ازداد اجتهاداً في تحصيل السبب كان حصول المقدور أدنى إليه.

فإذا قدر الله أن يرزق فلاناً ولداً فإنه قدر له أن يتخذ الزوجة ، بحيث يكون منها الولد ، وقل مثل هذا في سبب الرزق واستطبابه من مرضه ، فإذا علم العبد أن مصالح أخرى مرتبطة بالأسباب الموصلة « وهي الأعمال الصالحة » إليها كان أشد اجتهاداً في فعلها.

ولهذا قال أحد الصحابة لما سمع هذا الكلام من النبي ﷺ: ما كنت أشد اجتهاداً مني الآن.

---

(١) الليل (٥-١٠)

(٢) أخرجه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري .

فمن عطل العمل واتكل على القدر السابق فهو بمنزلة من عطل الأكل والشرب والسعي في المعاش وسائر أسبابه واتكل على ما قدر له ، ومعلوم أن الله قد فطر الناس جميعاً على الحرص على الأسباب التي بها صلاح دنياهم ، فكذلك يجب عليهم الحرص على الأعمال الصالحة ، وترك الأعمال القبيحة لتكون سبباً في دخولهم الجنة ونجاتهم من النار.

ولو قدر أن إنساناً ترك العمل الأخروي اتكالاً على ما سبق أن قدر له لكان تركه للعمل نفسه من الأمور المقدرة ، وهذا الفهم الذي دفعه لهذا الأمر أيضاً سبق به التقدير ، والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وله الحكمة البالغة في ذلك.

الاحتجاج بالقدر السابق على الذنوب والمعاصي:

بعض الناس إذا أمر بالصلاة أو الصيام أو غير ذلك من الطاعات المأمور بها شرعاً ، أو نهي عن معصية من المعاصي احتج بالقدر ، وقال: « لو أراد الله أو لو شاء الله لي أن أصلي لصليت أو أن لا أعصيه لما عصيت» ، أو يقول: « هذا تقدير الله » أو نحو ذلك ، وهو بهذا الاعتقاد يريد أن يعارض شرع الله بقدره ، ولا ريب أن هذه حجة داحضة من وجوه:

١- هذه الشبهة قد سبق إليها المشركون ، ولم يقبلها الله منهم:

قال تعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾(١) ، فلو كان لهم حجة في القدر لما أذاقهم الله بأسه ، وهو الحكم العدل الذي حرم الظلم على نفسه.

ولما كان لله حجة عليهم فيما يرتكبون من المحظورات ويتركون من الطاعات وقد أخبر سبحانه أن له الحجة البالغة فقال: ﴿فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾(٢) ، وحجته قامت عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

٢- ومن يحتج بالقدر على ترك المأمور وارتكاب المحظور إنما هو متبع لهواه ، ولا يطرد هذه الحجة في كل شيء:

فلو ظلمه أحد أو اعتدى على ماله أو عرضه لما قبل عذره لو اعتذر بالقدر فكيف لا يقبل احتجاج غيره بالقدر فيما لو اعتدى عليه ، ويحتج به لنفسه في اعتدائه على حق الله.

٣- الإنسان يعرف من نفسه أنه يأتي الفعل المحرم بإرادته واختياره ، ويترك المأمور بإرادته واختياره ، وهو لا يعلم بأن هذا كان مقدراً عليه مكتوباً قبل أن يفعله ، فكيف يحتج على ارتكاب المحرم أو الواجب بالقدر على ما باشره بقدرته واختياره وهو لا يعلم أنه مقدر عليه.

---

(١) الأنعام (١٤٨)
(٢) الأنعام (١٤٩)

٤- لو كان الاحتجاج بالقدر سائغاً لفسدت حياة الناس في الدنيا ، ولبطل الثواب والعقاب في الآخرة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميه: « فإن القدر لو كان عذراً للخلق للزم أن لا يلام أحد ولا يذم ولا يعاقب لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فلا يقتص من ظالم أصلاً ، بل يمكن الناس أن يفعلوا ما يشتهون مطلقاً ، ومعلوم أن هذا لا يتصور أن يقوم عليه مصلحة أحد في الدنيا ولا في الآخرة ، بل هو موجب للفساد العام ».

وقد يتعلق بعض من يذهب إلى الاحتجاج بالقدر على المعايب باحتجاج موسى وآدم عليهما السلام: فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (احتج آدم وموسى فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، قال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده ، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى ثلاثاً).

وليس في هذا حجة للذين يحتجون بالقدر على القبائح والمعايب ، ويمكن توجيه الحديث على أحد معنيين:

المعنى الأول:

أن آدم عليه السلام لم يحتج بالقدر السابق على الذنب ، وموسى عليه السلام لم يلم أباه آدم على ذنبه الذي اكتسبه ، فموسى عليه السلام أعرف بالله وأسمائه وصفاته من أن يلوم على ذنب قد تاب منه فاعله فاجتباه ربه وهداه واصطفاه ، بل موسى عليه السلام إنما لام آدم عليه السلام على المصيبة التي نالت آدم عليه السلام ، ونالت ذريته من بعده ، وهي خروجه من الجنة واهباطه الأرض ، وإنما ذكر موسى عليه السلام الخطيئة تنبيهاً على سبب المصيبة التي نالت الذرية.

ولهذا قال له موسى عليه السلام « خيبتنا وأخرجتنا من الجنة » ، فاحتج آدم عليه السلام بالقدر على المصيبة وقال: « أن هذه المصيبة التي نالت الذرية بسبب خطيئتي كانت مكتوبة مقدرة قبل خلقي » ، وهذا من تمام الإيمان بربوبية الله سبحانه ومشيئته النافذة ، فإن القدر يحتج به في المصائب دون المعايب.

فعلى العبد أن يستسلم للقدر إذا أصابته مصيبة ، قال تعالى: ﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ (١).

---

(١) البقرة (١٥٦-١٥٧)

المعنى الثاني:

أن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ويضر في موضع ، فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته كما فعل آدم عليه السلام ، فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته وذكرها ما ينتفع به الذاكر والسامع ، لأنه لا يدفع بالقدر أمراً ولا نهياً ولا يبطل به شريعة ، بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوة.

وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج بالقدر فيه على المعايب ، ففي الحال أو المستقبل بأن يرتكب فعلاً محرماً أو يترك واجباً فيلومه عليه لائم فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره ، فيبطل الاحتجاج به حقاً ، ويرتكب باطلاً كما احتج به المشركون على شركهم وعبادتهم لغير الله.

موقف العبد من المصائب التي تصيبه

المصائب التي تصيب الإنسان مما لا إرادة له فيها كالموت ، والمرض ، والفقر ، والظلم الذي يقع عليه من الغير ونحوها ، لا ريب أنها تدخل فيما قدره الله تعالى على العبد قبل خلقه ، وقد بين الله ﷻ ذلك بقوله: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾(١).

والعبد المؤمن عليه أن يؤمن بالقدر ، فيصبر إذا أصابته المصيبة في نفسه أو أهله مثل الأوجاع والأمراض وموت الأحبة والأقارب والجوائح التي تذهب بالمال من الزروع والثمار والحيوان وغير ذلك من أنواع المصائب ، ويعلم يقيناً أن ما أصابه لم يكن ليخطؤه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وللمؤمن بالقضاء والقدر درجتان عند المصائب:

الدرجة الأولى: أن يرضى بها وهذه منزلة عالية رفيعة.

قال ﷻ: ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾(٢) ، قال علقمة: « هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى ».

فمن كانت هذه حاله في المصائب كان عيشه كله في نعيم وسرور ، قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة.. ﴾(٣) ، قال بعض السلف الحياة الطيبة هي الرضا والقناعة.

ومما يدعو المؤمن إلى الرضا بالقضاء تحقيق إيمانه بمعنى قول النبيﷺ: (لا يقضي الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر وكان خيراً له وليس ذلك إلا للمؤمن).

الدرجة الثانية: أن يصبر على البلاء وهذه دون تلك والرضا مستحب مندوب والصبر واجب على المؤمن حتم ، وفي الصبر خير كثير فإن الله أمر به ووعد عليه جزيل الأجر: قال تعالى: ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾(١) ، وقال تعالى: ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾(٢) ،

---

(١) الحديد (٢٢)
(٢) التغابن (١١)
(٣) النحل (٩٧)

والصبر هنا كف النفس وحبسها عن السخط مع وجود الألم وتمني زوال ذلك ، وكف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع.

ولا ريب أن ملاحظة القدر عند المصائب يورث في القلب طمأنينة وسكوناً ، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو إني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان).

فأمره النبي ﷺ بالحرص على ما ينفعه ، وهو طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ، فليس للعبد أنفع من طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ.

وأمر بالاستعانة بالله سبحانه فإنه على كل شيء قدير ، وأمره إذا أصابته مصيبة أن يلاحظ تقدير الله السابق ، ويؤمن أن هذا شيء قد مضى به الكتاب ، وسبق به التقدير الإلهي فيسلم ويرضى أو يصبر ويحتسب ، ونهاه أن يقدر ما لم يقع ويتمنى لو كان ، فإن ذلك يورث حسرة وحزناً لا يفيد ، والتسليم للقدر هو الذي ينفعه.

---

(١) الزمر (١٠)

(٢) البقرة (١٥٥-١٥٧)

تلخيص مذهب أهل السنة والجماعة في باب القدر

يؤمن أهل الحديث أهل السنة والجماعة بالقدر بمراتبه الأربعة فيؤمنون أن الله ﷻ قد علم الخلائق وقدرها وكتبها وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم ، وأنه خالق كل شيء وربه ومليكه لا خالق سواه.

ويؤمنون بأنه سبحانه قدر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وكتب ذلك ، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة ، وعلم مساكنهم في الجنة أو النار ، ويؤمنون أن الله ﷻ يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، يهدي من يشاء بفضله ورحمته ، ويضل من يشاء بعدله وحكمته.

وأن العباد يعملون أعمالهم وهي أفعالهم حقيقة ، يفعلونها بمشيئتهم وقدرتهم ، والله ﷻ أقدرهم عليها وشاءها منهم ، فمشيئة العباد تبعاً لمشيئة الله سبحانه ، وتأتى منهم الأعمال وفق ما مضى به علم الله ، وما جرت به المقادير وجفت به الأقلام ، وهذا كله وفق علمه سبحانه وحكمته كما قال تعالى: ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما ﴾[1].

وأهل السنة والجماعة متفقون على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به ، منهيون عما نهاهم عنه ومتفقون على الإيمان بوعد الله ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة ، ومتفقون على أنه لا حجة لأحد على الله في واجب تركه ، ولا محرم فعله ، بل له الحجة البالغة على عباده.

الفرق الضالة في باب القدر:

لقد ضل في باب القدر طائفتان من هذه الأمة ، ولازال لهم بقية في عالمنا هذا اليوم ، ومن هنا كان من الضرورة التنبيه على مقالة هاتين الفرقتين فنقول:

قد تقدم لنا أن معبد الجهني أول من تكلم في القدر في البصرة ، بمعنى أنه نفى علم الله وتقديره لأعمال العباد قبل وجودها ، وقد وجد في زمنه وبعده ناس زعموا هذا الزعم الباطل ، وأنكروا علم الله بالموجودات قبل خلقها وإيجادها ، وزعموا أن الله أمر العباد

---

(١) الإنسان (٣٠)

ونهاهم ولا يعلم من يطيعه ومن يعصيه ، ولا يعلم أهل الجنة من أهل النار حتى يقع منهم الإيمان والطاعات أو الكفر والمعاصي.

وقد نشأ هذا القول في عصر أواخر الصحابة ، فأنكره ابن عباس وابن عمر وجابر وغيرهم وأنكره التابعون ، فبثوا ما عندهم من العلم من السنة النبوية ما بينوا به بطلان هذا القول ، وكفر من اعتقد عدم علم الله وتقديره السابق لأعمال العباد.

والتكذيب بالقدر أحد الأمور التي كان النبي ﷺ يخافها على أمته ، فعن أبي محجن أن رسول الله ﷺ قال: (أخاف على أمتي من بعدي ثلاثاً: حيف الأئمة وإيماناً بالنجوم وتكذيباً بالقدر).

ويسمى هؤلاء القدرية ، لأنهم نفوا تقدير الله السابق لأعمال العباد وعلمه بها وقدرته عليها ، ولما ورد في الأحاديث من ذكرهم بهذا الاسم ، وهؤلاء هم غلاة القدرية ، وهم الذين أنكروا علم الله السابق بالأعمال وتقديره لها ومشيئته وخلقه لها ، وهذا الفكر انتهى الآن ولا وجود له ، لكن تلقف هذا القول منهم المعتزلة ، إلا أنهم اقتصدوا فيه وفيما يلي تفصيل مذهبهم:

١- القدرية المعتزلة:

تلقف المعتزلة نفي القدر من القدرية الغالية الأولى ، لكنهم لم يجاروهم في كل قولهم ، بل آمنوا بأن الله علم أعمال العباد وقدرها وكتبها ، ولكنهم أنكروا مشيئته لها ، وأن يكون هو الخالق لها فهم يرون أنها تقع من العباد ولا تتعلق بمشيئة الله ولا خلقه ، بل بمشيئة العباد وفعلهم على وجه الاستقلال.

وقد روي في ذم القدرية عدة أحاديث ، منها ما روي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (القدرية مجوس هذه الأمة) ، والسبب في تسميتهم مجوس هو أن المجوس أثبتوا إلهين ، إله يخلق الخير وإله يخلق الشر ، بمعنى أنهم يعتقدون بوجود خالقَيْن لهذا الكون.

وهؤلاء اعتقدوا أن الله خالق كل شيء ، والعباد هم الذين يوجدون أعمالهم « إيمانهم وطاعاتهم وكفرهم ومعاصيهم وسائر حركاتهم وسكناتهم » ، ولا تعلق لها بمشيئة الله وخلقه.

فعلى قولهم يكون العباد خالقين لأفعالهم ، فيكونون قد اعتقدوا بوجود خالقين مع الله ﷻ ، فيكونون قد شابهوا المجوس ، بل قد زادوا عليهم ، فأولئك أثبتوا وجود خالقين فقط ، وهؤلاء أثبتوا أكثر من ذلك.

شبهة المعتزلة القدرية والرد عليها:

للمعتزلة شبهاً جعلتهم يقولون هذا القول ، ويعتقدون أن أعمال العباد لا تدخل تحت خلق الله ومشيئته منها:

قولهم: لو كانت أعمال العباد تقع بمشيئة الله تعالى وخلقه سبحانه لما استحقوا الذم على قبيحها لأنها ليست أفعالهم.

والجواب: إن هذه الشبهة مبنية على أن إضافة أعمال العباد إلى الله خلقاً ومشيئته ينفي إضافتها إلى العباد أنفسهم كسباً باختيارهم ، فيكونون حينئذٍ مجبورون على ما يكون منهم من الأعمال ، لا إرادة لهم فيها ولا اختيار.

وهذا اعتقاد باطل ، فإن أفعال العباد كما بيّنا من قبل هي مخلوقة لله تعالى مفعولة ، وهي كسب للعباد ، فالعباد لهم قدرة ومشيئة لأفعالهم ، ولكن قدرتهم ومشيئتهم تحت قدرة الله ومشيئته وتبعاً لها ، كما قال تعالى: ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾(١) ، فأثبت الله لهم مشيئة للاستقامة ، وأخبر أن مشيئتهم تبعاً لمشيئته سبحانه وتعالى.

وقد جاء إضافة أعمال العباد إليهم فعلاً وكسباً ، وعليها يكون الجزاء ، قال تعالى: ﴿ أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ﴾(٢) ، فأثبت الله لأهل الجنة أعمالاً كانت سبباً في دخول الجنة ، وقال تعالى: ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ﴾(٣) ، وقال تعالى: ﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾(٤) فأضاف الله السيئات للعبد ، وأخبر أنه يجزى بها.

وقال تعالى: ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾(٥) ، فإذا عاقب الله عز وجل الكفار والعصاة فإنما يعاقبهم على أفعالهم القبيحة التي اكتسبوها بإرادتهم وفعلوها بقدرتهم ، وهم حين كانوا يمارسون تلك الأعمال لا يشعر أحدهم البتة أنه مجبور على أفعاله ، ومع هذا فهي واقعة بمشيئة الله وقدرته ولو شاء سبحانه أن لا تقع منهم لما وقعت.

---

(١) التكوير (٢٨-٢٩)
(٢) الأحقاف (١٤)
(٣) النجم (٣١)
(٤) غافر (٤٠)
(٥) فصلت (٤٦)

والله ﷻ **يهدي من يشاء** رحمةً منه وفضلاً ، ويضل من يشاء حكمةً منه وعدلاً ، وهو سبحانه منزه عن الظلم ، قال تعالى: ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾(١) ، وقال تعالى: ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾(٢) بل لو أُكْرِه إنسان على التلفظ بكلمة الكفر أو غيرها مما لا يرضاه الله تبارك وتعالى لا يحاسبه الله على ذلك ، بل يعفو عنه ، لأن من شرط التكليف وجود الإرادة والاختيار عند الفاعل ، قال تعالى: ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾(٣).

لعله الآن تبين أن كون أعمال العباد مخلوقة لله تعالى مفعولة لا ينافي كونها أفعالهم التي اكتسبوها بمشيئتهم وقدرتهم التابعة لمشيئة الله ، وأن الله إذا عذبهم إنما يعذبهم على أعمالهم هم أنفسهم الواقعة منهم بقدرتهم واختيارهم ، فلا يكون في ذلك ظالماً لهم.

٢- الجبرية:

القدرية المعتزلة زعموا أن أفعال الإنسان تقع بمشيئته وقدرته استقلالاً ، ولا تعلق لأفعاله لمشيئة الله سبحانه وقدرته ، فقابلهم الجهم بن صفوان ومن تبعه فقالوا إن الإنسان مجبور على أفعاله مقهور عليها ، ويرون أن أفعاله الاختيارية من القيام والقعود والحركات المختلفة والأعمال التي يأتيها هي من جنس حركة الأشجار أو الريشة في مهب الريح ، وعندهم أن الفاعل هو الله وحده.

وهؤلاء آمنوا بالقدر وكتابة الله للمقادير ، وعلمه بها ومشيئته لكل ما يوجد ، ونظروا إلى ربوبية الله الشاملة لكل شيء ، وأنه رب كل شيء ومليكه ، وخالق كل شيء ، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فنسبوا كل شيء إليه وحده ، ولم ينظروا إلى الأسباب ولم يفرقوا بين الإنسان الذي يفعل بإرادته واختياره وبين سائر الموجودات الأخرى ، ولم يجمعوا بين الأمرين كما ذكرنا من قبل.

ثم لم يزل هذا الفكر يتطور حتى تلقفه بعض العباد والزهاد والمتصوفة ، فآل بهم الأمر إلى ترك العمل ، احتجاجاً بالقدر قبل وقوعه ، واحتجوا بالقدر على ما يقع منهم من أعمال مخالفة للشرع.

---

(١) فصلت (٤٦)
(٢) الكهف (٤٩)
(٣) النحل (١٠٦)

الرد على الجبرية فيما أخطئوا فيه:

١- خطؤهم في إطلاق اسم الجبر على ما يقوم به الإنسان من أفعال:

يقول هؤلاء إن الله جبر عباده على أفعالهم التي يقومون بها وإطلاق هذا اللفظ لم يرد في الكتاب والسنة ، والواجب على العباد استخدام الألفاظ التي جاءت بها النصوص الشرعية ، فإنها هي التي تفيد المعاني الصحيحة ، مع السلامة من اللوازم الفاسدة.

وقد أنكر سلف الأمة استعمال لفظ الجبر في هذا الباب ، فقد أخرج الخلال بسنده إلى بقية قال: سألت الزبيدي (١) ، والأوزاعي (٢) ، عن الجبر:

فقال الزبيدي: « أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل ، ولكن يقضي ويقدر ويخلق ويجبل عبده على ما أحبه ».

وقال الاوزاعي: « ما أعرف للجبر أصلاً من القرآن ولا السنة ، فأهاب أن أقول ذلك ، ولكن القضاء والقدر والخلق والجبل فهذا يعرف من القرآن والحديث عن رسول الله ﷺ ».

وورد إنكار إطلاق لفظ الجبر عن طائفة أخرى من أئمة أهل السنة ، مثل سفيان الثوري ، وأبو إسحاق الفزاري ، والسلف أنكروا لفظ « الجبر » لأنه مجمل قد يراد بالإجبار معنى الإكراه ، كقولك : « أجبر الأب ابنته على النكاح ».

وجبر الحاكم الرجل على بيع ماله لوفاء دينه ، فمعنى الإجبار هنا الإكراه ، فيكون معنى قولهم أجبر الله العباد أي اكرههم لأنه جعلهم مريدين لأفعالهم مختارين لها عن حب ورضا.

وإطلاق هذا في حق الله تبارك وتعالى خطأ ووجه هذا الخطأ يوضحه شيخ الإسلام ابن تيميه بقوله: « فإن الله أعلى وأجل من أن يجبر أحداً ، وإنما يجبر غيره العاجز عن أن يجعله مريداً للفعل مختاراً له محباً له راضياً به ، والله ﷻ قادر على ذلك ، فهو الذي جعل المريد للفعل المحب له الراضي به مريداً له محباً له راضياً به ، فكيف يقال أجبره وأكرهه كما يجبر المخلوق المخلوق »(٣).

(١) محمد بن الوليد بن عامر الزبيدي .

(٢) عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي .

(٣) مجموع الفتاوى ٤٦٣/٨

ويلزم من الجبر على هذا المعنى أن يكون الله ﷻ ظالماً للعباد تعالى الله عن ذلك ، إذا أجبرهم على فعل المعاصي ويحاسبهم عليها.

وقد يراد بالجبر أن الله جعل العباد مريدين لما يشاء منهم مختارين له من غير إكراه ، وهذا المعنى صحيح.

فلما كان الجبر قد يراد به المعنى الأول المتضمن لوصف الله بالعجز المستلزم لوصفه بالظلم ، وقد يراد به المعنى الصحيح ، منع السلف من إطلاقه نفياً وإثباتاً.

٢- خطؤهم في زعمهم أن العباد لا اختيار لهم في أفعالهم:

ولا ريب أن دعواهم أن العبد مجبور على فعله وأن لا اختيار له دعوى باطلة ، يدرك بطلانها كل ذي عقل سليم ، فإن الإنسان يفرق بين حركة يده المرتعشة التي تحصل له اضطراراً من غير اختيار ، بحيث لو أراد تسكينها لما استطاع ، وبين قيامه وقعوده وأكله وشربه وصلاته وسائر طاعاته أو معاصيه فإن هذه يأتيها ويفعلها بإرادته وقدرته لا يشعر بأنه مجبر على شيء منها ، بينما حركة يده المرتعشة لا إرادة له فيها في حركتها ، فالفرق بينهما واضح بيِّنْ إلا على من أعمى الله بصيرته.

والثواب والعقاب إنما هو على أعماله التي يكتسبها بإرادته وقدرته ، وقد أثبت الله ﷻ للعبد إرادة ومشيئة ، وأضاف العمل إليه ، قال تعالى: ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾(١) ، وقال: ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾(٢) ، وقال تعالى: ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾(٣).

---

(١) آل عمران (١٥٢)

(٢) الكهف (٢٩)

(٣) فصلت (٤٦)

وكان من آثار هذه العقيدة:

١- أن ترك بعض أصحابها الأعمال الصالحة الخيرة التي تكون سبباً في دخولهم الجنة ونجاتهم من النار وارتكبوا كثيراً من الموبقات والمعاصي بدعوى أن المقدر المكتوب لابد أن يصيب العبد ، وقصدوا بذلك كما يقول ابن القيم: « تحميل ذنوبهم على الأقدار وتبرئتها من الذنوب والأوزار وقالوا إنها في الحقيقة فعل الخلاق العليم ».

٢- وبلغ الانحراف بطائفة أخرى ممن ينتحل هذا المذهب من المتصوفة إلى أن قالوا أن الله أحب كفر الكافر ومعصية العاصي وإيمان المؤمن وطاعة المطيع ، لأنهم يزعمون أن كل شيء شاءه الله وخلقه وأوجده فهو يحبه ويرضاه.

ولا ريب أن هذا إبطال للشرائع الإلهية ، وانسلاخ من الدين بالكلية ، وترك للأوامر والنواهي الإلهية.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه:

« فمن أثبت القدر واحتج به على إبطال الأمر والنهي فهو شر ممن أثبت الأمر والنهي ولم يثبت القدر ، وهذا متفق عليه بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل بين جميع الخلق ، فإن من احتج بالقدر وشهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات و لم يفرق بين المأمور والمحظور والمؤمنين والكفار وأهل الطاعة وأهل المعصية لم يؤمن بأحد من الرسل ولا بشيء من الكتب وكان عنده آدم وإبليس سواء ، ونوح وقومه سواء ، وموسى وفرعون سواء ، والسابقون الأولون والكفار سواء ».

صفة الإرادة وصفة المحبة لله ﷻ

إن من أسباب ضلال كل من القدرية النفاة المعتزلة والقدرية الجبرية في باب القدر الربط الخاطئ بين مشيئة الله وإرادته ومحبته.

١- **فالمعتزلة القدرية** يرون أن المشيئة والإرادة تقتضي المحبة والرضا بالمراد.

ولما كانت نصوص الكتاب والسنة تدل على أن الكفر والفسوق والمعاصي وهي من أفعال العباد لا يحبها الله ولا يرضاها ، فإنهم نفوا أن يكون الله قد شاءها وأراد وقوعها منهم ، ونفوا خلقه وتكوينه لها ، فأخرجوا بالفهم الخاطئ أفعال العباد من أن تكون واقعة بمشيئة الله تعالى وزعموا أنه سبحانه لم يخلقها ، وإنما العباد أوجدوها بمشيئتهم المستقلة وهذا انحراف ، لأنه يلزم من ذلك أن يوجد في ملك الله تعالى ما لا يشاء حصوله ، وأن يكون في الموجودات ما لا يخلقه الله ﷻ وهي أفعال العباد ، إيمان المؤمنين وطاعاتهم ، وكفر الكافرين ومعاصيهم ، وسائر أعمالهم الاختيارية ، ففروا من شيء ووقعوا فيما هو شر منه ، إذ أثبتوا وجود خالقين مع الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كثيراً.

وفروا من القول بأن الكفر والمعاصي واقعة بمشيئة الله ، ولزمهم أن يقولوا إن الله شاء من الكافرين الإيمان ، وأن الكافر قد شاء الكفر ، فتحققت مشيئة العبد الضعيف وتعطلت مشيئة العليم القدير.

٢- **وأما الجبرية** فقد آمنوا بأن الله خالق كل شيء وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ثم آل أمرهم إلى أن زعموا أن كل شيء مخلوق موجود فالله قد أحبه ورضيه لأن كل موجود فالله مريد له ، والإرادة هي المحبة والرضا ، فالله بزعمهم يحب إيمان المؤمنين وطاعاتهم وكفر الكافرين ومعاصيهم ، تعالى الله عن قولهم.

وتأول كل من الفريقين النصوص القرآنية والنبوية التي يخالف ظاهرها مذهبهم:

فالمعتزلة صاروا يتأولون الآيات القرآنية المصرحة بإرادة الله لكل ما يوجد ، ومن خلقه لأفعال العباد بتأويلات محرفة.

والجبرية تأولوا الآيات التي فيها النص على عدم محبة الله فيها للفساد ،كقوله تعالى: ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾(١) وتأولوا قوله تعالى: ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر ﴾(٢) ، تأولوا هذه الآيات وأمثالها بما يخالف دلالة ظاهرة على عدم محبة الله للفساد والكفر الحاصل من المفسدين والكفار.

أما أهل السنة والجماعة ، السلف أصحاب الحديث فقد اتبعوا الكتاب والسنة فأبصروا الحق وقالوا به ، فقالوا:

١- ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فكل موجود من الأعيان والأفعال والأوصاف فقد تعلقت به مشيئة الله ، ولو لم يشأ الله حصوله ووجوده لما وجد.

فالله قد شاء إيمان المؤمنين وطاعاتهم فآمنوا وأطاعوا ، وشاء كفر الكافرين ومعاصيهم فكفروا وعصوا ، وهو يحب الإيمان والطاعة وأمر بهما ، ويكره الكفر والمعصية ونهى عنهما.

فمشيئة الله للشيء لا تستلزم محبته ، فقد يكون الشيء الذي شاءه الله محبوباً له كـ «الإيمان والطاعات من المؤمنين» وقد يكون مكروها له كـ «الكفر والمعاصي».

٢- ويرون أن الإرادة في كتاب الله تعالى نوعان:

أ - الإرادة القدرية الكونية:

وهذه بمعنى المشيئة ، فهي الإرادة المستلزمة لحصول المراد ، وهي التي يقال فيها ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وهذه الإرادة مثل التي في قوله تعالى: ﴿ فعال لما يريد ﴾(٣) ، وقوله تعالى: ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ﴾(٤).

---

(١) البقرة (٢٠٥)
(٢) الزمر (٧)
(٣) هود (١٠٧)
(٤) الأنعام (١٢٥)

وقوله تعالى: ﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾(١) ، وقوله تعالى: ﴿ ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴾(٢).

فهذه الإرادة التي بمعنى المشيئة لا يخرج عنها شيء من الكائنات ، فكل الحوادث الكونية داخلة في مراد الله ومشيئته ، وهذه يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر ، ويدخل فيها ما حدث من الطاعات والمعاصي دون ما لم يحدث.

فإيمان المؤمنين مراد إرادة كونية ، لأنه حاصل وواقع ، وكفر الكافرين ومعاصيهم مراد إرادة كونية لأنها حاصلة وواقعة وموجودة ، فالمعاصي وإن كان الله تعالى يريدها قدراً وكوناً فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها ، بل يبغضها ويسخطها وينهى عنها.

ب- الإرادة الدينية الشرعية:

وهذه الإرادة تتضمن المحبة ، وتتعلق بأمر الله الديني وشرعه الذي شرعه ، وهذه الإرادة مثل التي في قوله تعالى: ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾(٣) ، وقوله تعالى: ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ﴾(٤) وهذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد بل قد يوجد وقد لا يوجد.

تلخيص الفرق بين الإراديتين:

١- **الإرادة الكونية تستلزم وقوع المراد** مثل « إيمان المؤمنين وطاعاتهم وكفر الكافرين ومعاصيهم » ، **بينما** الإرادة الدينية الشرعية لا تستلزم حصول المراد ، فالإيمان مراد إرادة شرعية ، لكن قد يوجد من العبد وقد لا يحصل ، فإذا حصل يكون مراداً إرادة كونية وإرادة شرعية.

٢- **الإرادة الشرعية تقتضي محبة المراد** ورضاه ومحبة أهله والرضا عنهم ، **بينما** الإرادة الكونية لا تستلزم محبة المراد ، فقد يكون محبوباً كطاعات المؤمنين ، وقد يكون مكروهاً كالكفر والمعاصي.

---

(١) هود (٣٤)
(٢) البقرة (٢٥٣)
(٣) البقرة (١٨٥)
(٤) المائدة (٦)

فتجتمع الإرادتان في الأعمال الصالحة التي تقع من المؤمنين ، فمن جهة حصولها تتعلق بها الإرادة الكونية ، ومن جهة كونها محبوبة مرضي عنها تتعلق بالإرادة الشرعية الدينية.

وتنفرد الإرادة الدينية بما أمر الله به من الأعمال الصالحة ، فعصى ذلك الكفار والفجار مثل: « إيمان الكفار وطاعات العصاة » فهذه مراد إرادة دين والله يحبها ويرضاها لو وقعت ولو لم تقع.

وتنفرد الإرادة الكونية بما وقع وحصل من كفر الكافرين ومعاصي الفجار وغير ذلك من الحوادث التي لم يأمر الله بها أمراً شرعياً.

وما لم يوجد من الكفر والمعاصي لم تتعلق به الإرادة الكونية التي بمعنى المشيئة ولا الإرادة الشرعية التي بمعنى المحبة والرضا ، وهذا مثل كفر المؤمنين ومعصية الملائكة.

أثر الإيمان بالقدر

عرفنا أن القدر الواجب الإيمان به هو الإيمان أن الله ﷻ قد علم مقادير الأشياء وكتبها قبل إيجادها ، ثم يوجدها وفق ما سبق به علمه وجرى به القلم في أزمانها وعلى هيئاتها ومقاديرها التي قدرها لها.

والإيمان بالقدر على هذا النحو يكون قلب صاحبه قد امتلأ من تعظيم الله وإجلاله لما عرف من كمال صفاته ، فإنه سبحانه العليم الذي وسع كل شيء علماً ، والذي أحاط علمه بكل شيء ، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وهو سبحانه القدير الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو سبحانه الخالق لكل شيء فهو الرب وما عداه مربوب وهو الملك وما عداه المملوك ، وهو سبحانه الحكيم فلا يأمر إلا لحكمة ، ولا يخلق إلا لحكمة ، وما ظهر من حكمته بهر عقول الناس وأخذ بألبابهم ، وما أخفى عليهم من حكمته لا يعلمه إلا الله.

الإيمان بالقدر بهذا المعنى له ثمار طيبة منها:

١- أنه يخلص الإنسان من الشرك:

وذلك أن المؤمن يؤمن بأن الله هو الخالق وحده لكل شيء ، ويدخل في ذلك أنه سبحانه هو خالق العباد وهو خالق أفعالهم وحركاتهم وأقوالهم ، وهي تقع منهم بفعلهم واختيارهم وإرادتهم التابعة لمشيئة الله النافذة ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن.

وبهذا الإيمان يتخلص العبد من الشرك في الربوبية الذي وقع فيه المجوس وغيرهم الذين زعموا أن الله خالق للخير والظلمة خالقة للشر.

ويتخلص من الانحراف الذي وقعت فيه القدرية المعتزلة الذين زعموا أن الله لم يخلق أفعال العباد وأن العباد هم الذين أوجدوا أفعالهم بقدرتهم ومشيئتهم استقلالاً عن قدرة الله ومشيئته وبذلك يكون هؤلاء قد أثبتوا خالقين غير الله.

٢- أنه يربط المؤمن بربه ﷻ:

فالعبد المؤمن يعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه سبحانه مالك الملك ، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه لا حول ولا قوة إلا به ، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء .

فيسأل ربه الهداية والاستقامة على شرعه بطاعته فيجتهد في فعل الأوامر وترك النواهي ، مستعيناً بالله وحده ، محققاً بذلك قوله سبحانه: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾(١) وقوله: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾(٢).

فيخلص له العبادة ويفرده بالاستعانة ، ويسأله الهداية ، ويسعى في مصالح دنياه متحرياً طاعة مولاه ، مستعيناً به متوكلاً عليه ، يبذل الأسباب ويعلم أن الأمر بيد العزيز الوهاب ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

٣- أنه يجعل من الإنسان شخصية متزنة في حال السراء والضراء:

فالمؤمن يعلم أن ما أصابه من النعم كـ « الصحة والعافية والولد والمال » لم يحصل عليها بمجرد ذكائه وحسن تدبيره ، بل الله هو الذي ساقها إليه ويسر له أسبابها وقدرها له ومكنه منها ، قال تعالى: ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾(٣) ، فلا يطغى إن رآه استغنى ولا يفخر على عباد الله ، بل يشكر الله على نعمه ويؤدي حقه فيها ، ويحسن إلى الناس كما أحسن الله إليه ، قال تعالى: ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾(٤).

(١) الفاتحة (٥)
(٢) الفاتحة (٦)
(٣) النحل (٥٣)
(٤) القصص (٧٦-٧٧)

والعبد المؤمن إذا أصابته مصيبة كـ « خوف أو مرض أو فقر أو نقص في المال » علم أن ذلك ابتلاء من الله ، وأنه وقع به بتقدير الله وحكمته فلا يجزع ، بل يحتسب ويصبر كما قال تعالى: ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾(١).

فالعبد المؤمن يرى أمره كله له خير كما قال ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء فصبر فكان خيراً له)(٢).

٤- أنه يجعل المؤمن دائماً على حذر:

لأنه يؤمن بأن الله ﷻ قد علم مكانه من الجنة أو النار ، وقدر له الأسباب التي توصله إلى إحدى المترلتين ، وطوى عنه علم الغيب فهو وإن كان يرى في نفسه الآن أنه مستقيم على طاعة الله فلا يدري ما يخبئه له القدر ، ولا يدري ما يختم له به عمله ، فيكون خائفاً حذراً يسأل الله الثبات وحسن الخاتمة ، ولا يأمن من تغير الأحوال كما قال تعالى: ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾(٣) ، فالقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، والفتن ما أكثرها ، ولا سبيل له من النجاة منها إلا باللجوء إلى الله ، والاستعاذة به من شرورها ، فيدفعه إيمانه بالقدر إلى المجاهدة الدائبة لتحري الاستقامة بالإكثار من عمل الصالحات ، ومجانبة المعاصي والموبقات ، ويبقى قلبه معلقاً بخالقه ، ويدعوه ويرجوه ويستعينه ويستعيذ به من شر فتن المحيا والممات.

---

(١) البقرة (١٥٥-١٥٧)
(٢) أخرجه مسلم عن صهيب بن سنان
(٣) الأعراف (٩٩)

٥- أنه يدفعه إلى مواجهة الصعاب وتحمل الأخطار بقلب ثابت:

فالإيمان بالقدر يتضمن أن كل ما يصيب الإنسان مكتوب ، فالمؤمن بالقدر يعلم أن أجله ورزقه بيد الله وحده ، قال تعالى: ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ﴾(١) ، وقال تعالى: ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ﴾(٢).

وقد مر معنى في علم الله أجله ورزقه وكتب ذلك وجرت به المقادير ، فلا يخاف أحداً غير الله أن يعجل أجله أو يضيق عليه رزقه ، ويعلم أيضاً أن ما أصابه من المصائب لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، لأن ذلك كله بقدر الله ومشيئته ، وقد مضى به الكتاب ، قال تعالى: ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾(٣) ، فيدفعه الإيمان إلى تحمل الصعاب بقلب ثابت وهامة مرفوعة راضٍ بما يجري عليه من قضاء الله محتسباً أجره عنده.

وهذا الإيمان من أعظم عوامل ثبات المؤمنين في الجهاد في سبيل الله بقلوب مطمئنة غير هيابين ولا وجلين ، وفي مواجهة الظلمة والطغاة يقولون كلمة الحق لا يخافون لومة لائم.

---

(١) العنكبوت (٦٢)
(٢) آل عمران (١٤٥)
(٣) الحديد (٢٢)